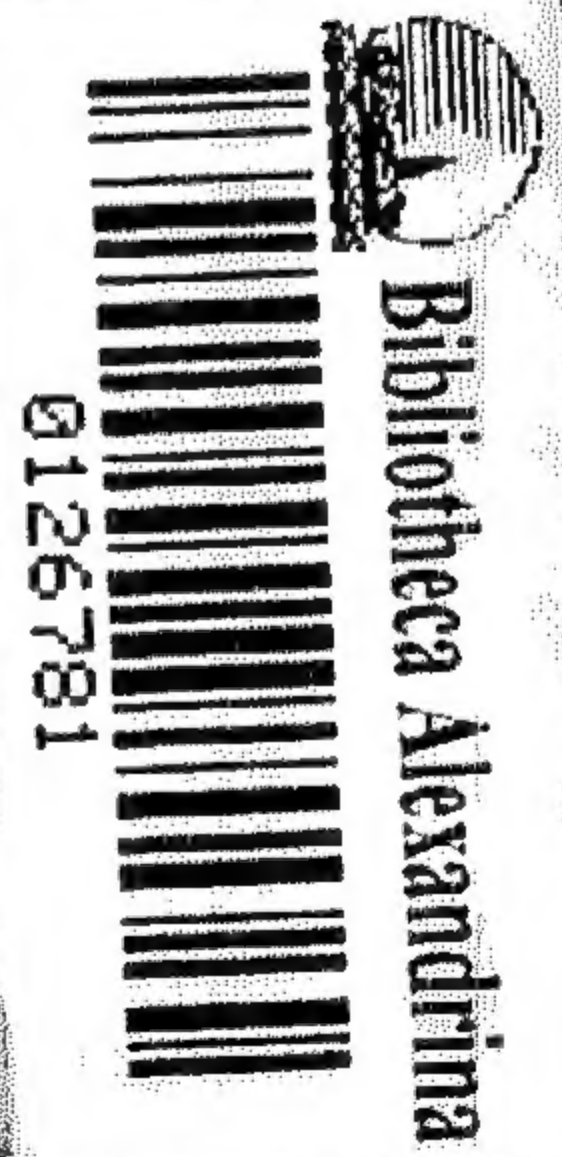
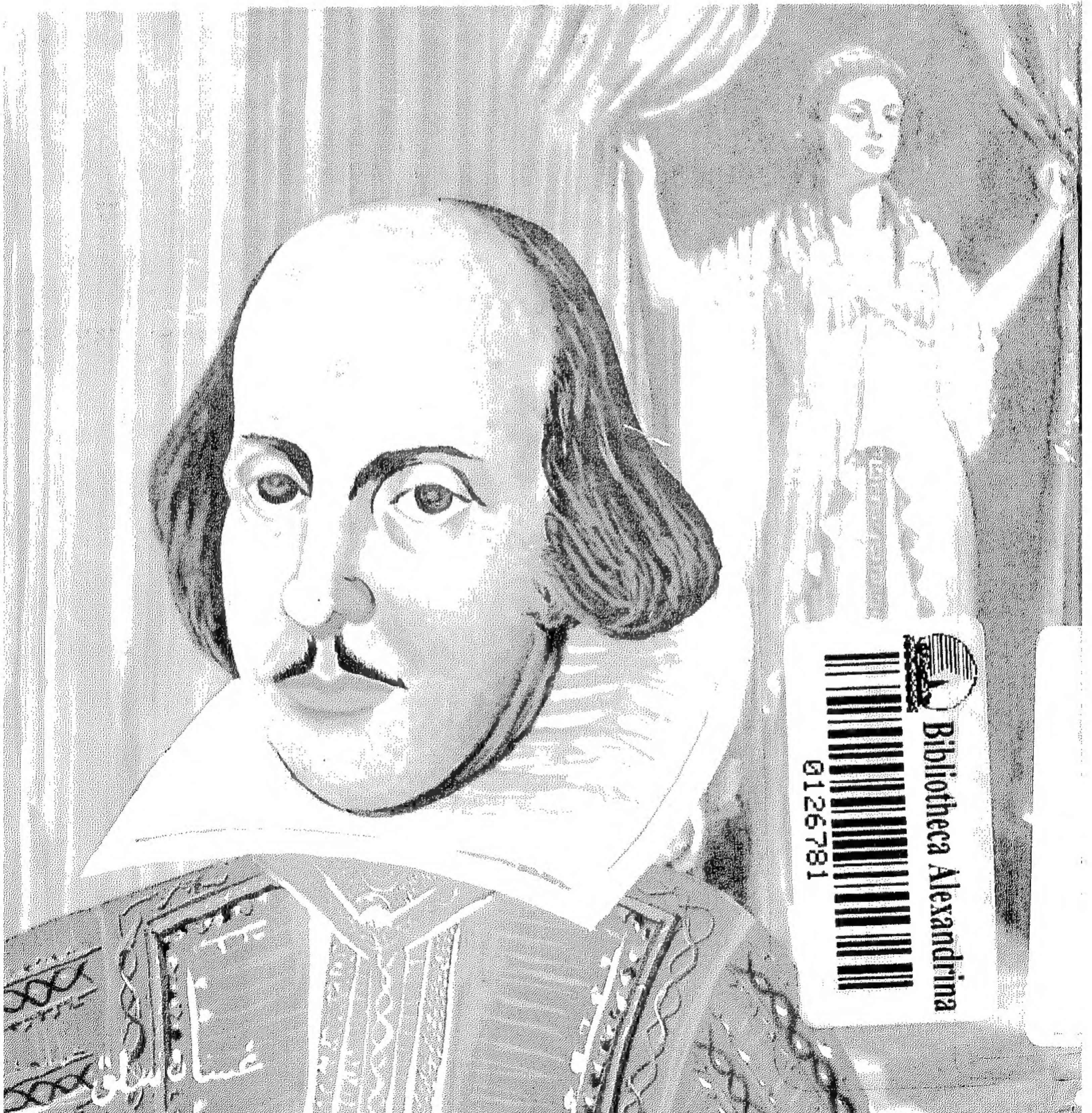


أعلام
مبرزون

وليم شكسبير



أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

وليم شكسبير

١٥٦٤ - ١٦١٦ م

دار الشرق العربي
بيروت شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في حشر حقائق (تقرئها سيدنا موجزة)
للأخلاق من ميزان بين الشرق والغرب

- | | |
|----------------------|---------------------|
| ١- الإسكندر الأكبر | ٢- هنيبعل |
| ٣- أبو العلاء المعري | ٤- ابن بطوطة |
| ٥- ابن خلدون | ٦- كريستوف كولومبوس |
| ٧- وليم شكسبير | ٨- نابليون بونابرت |
| ٩- ليون تولستوي | ١٠- المهاتما غاندي |

كتبها وأشرف على إصدارها
الأستاذ صالح الأشتي

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

مقدمة

يَتَّفَقُ المؤرخون الغربيون على اعتبار سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ م بدايةً لعصر النهضة في أوربة، إذ انتقلت كنوز التراث اليوناني والروماني مع العلماء الذين كانوا يقيمون في القسطنطينية إلى إيطاليا وغيرها من بلاد الغرب التي نزلوا إليها، فكانت منطلقاً لنهضة فكرية كبيرة، وبدأت ثقافة اليونان والرومان، الصادرة عن تراثهما المنقول إلى أوربة، تُضيء العقول وتبث في النفوس روحاً جديدة تتمرّد على السلطات الدينية، وتهاجم الكنيسة التي كانت آنذاك تمسك بزمام الفكر وتوجّهه حسب مشيئتها، وقد تمثلت هذه الروح الجديدة الناقمة في عدد من المصلحين الدينيين الذين دعّوا إلى تطهير العقائد، وخرجوا على السلطة البابوية، وانقسم المسيحيون طائفتين: الكاثوليك الذين ظلوا يحتفظون بالعقيدة القديمة، والبروتستانت الذين كانوا يطالبون بالتجديد والإصلاح، وكانت الغلبة في انكلترا لهذه الطائفة الثانية، وشملت البلدان الأوربية كلها موجة عارمة من الشعور

القُومِيّ، إذ أصبحت كلُّ أمةٍ تُثبِّتُه إلى نفسها وقُومِيَّتِها وتَحَرِّضُ على استقلالِها، وظهر أثر ذلك كُلِّه في الأدب في الأعوام الأخيرة من القرن السادس عشر، وفي أدب شيكسبير في تلك الحقبة نجد صورةً تُمثِّلُ بوضوح وجلاء الرِّيحَ القُومِيَّةَ الانكليزية والشعورَ القويَّ في نفوس الانكليز بِقُومِيَّتِهِمِ المُستقلَّة، وذلك هو الطابعُ المُمَيِّزُ لِعَصْرِ المَلِكَةِ إليزابيث، وهو عصرُ شيكسبير نفسه، الذي كان عَصراً زاهراً بالنهضة التي شملت أوربة بأسرها، والتي كانت مِنْ أُبْرَزِ مُتُومَاتِها أربعة أمور:

- ١ — ثقافة جديدة مَوْضُوعُهُ بكتبِ التراث اليوناني والروماني..
 - ٢ — وَحَرَكَةُ إِصْلَاحٍ دِينِيٍّ تدعو إلى تَطْهِيرِ العقيدة..
 - ٣ — وشعورٌ بالقُومِيَّةِ يُمَيِّزُ أُمَّةَ أوروْبَّةَ بعضها من بعض..
 - ٤ — وتطلُّعٌ لاستكشافِ آفاقِ الأرضِ والسَّما في مُغامراتِ الرِّحَالَةِ والمَلَّاحِينَ والفَلَكِيِّينَ لِمَعْرِفَةِ المَجْهُولِ!
- جميعُ هذه المقوماتِ نَجَدُها بارزة في مُؤلَّفاتِ شيكسبير، والحقُّ أن شاعرَ الانكليزِ الأعظمَ هذا هو الثمرةُ الكُبرى لثقافة عَصْرِه المُزْدَهَرَةِ، بكلِّ خصائصِها ومُمَيِّزَاتِها، كما سنرى من خلالِ عرضِنا لسيرة هذا العبقرِيِّ المبرِّزِ الخالدِ.

الباب الأول

نشأة شكسبير وتكوينه الثقافي

وُلِدَ وَلِيمُ شَكْسِيرُ فِي انْكَلْتَرِه، فِي بَلَدَةٍ صَغِيرَةٍ
تُدْعَى سْتِرَاتْفُورْدَ، تَقَعُ عَلَى نَهْرِ آفُون، وَيُحِيطُ بِهَا
رَيْفٌ رَائِعٌ فَاتِنٌ، فَالْمُرُوجُ تَحْفُ بِهَا، وَالتَّلَالُ
وَالْوَهَادُ الْمَكْسُوءَةُ بِالْخُضْرَةِ الدَّائِمَةِ تَمْتَدُّ مِنْ حَوْلِهَا،
وَتَجْعَلُ تِلْكَ الْمِنْطَقَةَ الرَّيفِيَّةَ عَامِرَةً بِالْأَوَانِ النَّشَاطِ:
فِرْعَاةُ الْمَاشِيَةِ مَعَ قِطْعَانِ الضَّأْنِ مُنْتَشِرُونَ فِيهَا،
وَالْفَلَاحُونَ يَزْرَعُونَ وَيَخْصُدُونَ فِي أَرْضٍ سَخِيَّةٍ
مِغْطَاءٍ، وَالصَّيَادُونَ لَا يَكْفُونَ عَنْ صَيْدِ طَيْرِهَا
وَحَيَوَانِهَا. أَمَّا الْبَلَدَةُ نَفْسُهَا فَلَمْ تَكُنْ قَرْيَةً ضَيْلَةً
مُنْعَزَلَةً فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الرَّيفِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، بَلْ كَانَتْ
مَدِينَةً نَشِيطَةً تَمُوجُ بِرِجَالِ التِّجَارَةِ وَالْأَعْمَالِ

وأصحاب الأراضى الموسرين، وكان عدد من أهلها قد غادروها إلى لُنْدُنَ، لِيَشُقُّوا لأنفسهم طرقَ مُستقبلهم فيها، فأصابوا من التَّجَاجِ والغنى والنُّفُوزِ حُظوظاً كبيرة، حتى إنَّ واحداً من تُجَّار ستراتفُوردَ النازحين إلى لُنْدُنَ صارَ عُمْدَةً لِلْعَاصِمَةِ الانكليزية.

في هذه المدينة الريفية وُلِدَ شكسبيرُ في الثالث والعشرين من نَيْسان عام ١٥٦٤ م، في بيتٍ من بُيوتها، في شارع (هَنْلى) يَقْصِدُهُ الزائرون من أرجاء الدنيا ألوفاً في كُلِّ عامٍ، وفي كنيسة هُولى تِرِينِتي (كنيسة الثالث المُقَدَّس) في هذه المدينة عُمْدَ وَلِيم شكسبير وسُجِّلَ اسمُه في سِجَلِّ التَّعْمِيدِ فيها، وهي الكنيسة التي ستَضُمُّ رُفَاتَهُ بعدَ مَوْتِهِ، وسيَصِيرُ قَبْرُهُ فيها مَقْصِدَ الزُّوَّارِ الوافدين على مَسَقِطِ رَأْسِ الشاعر الانكليزيِّ الأعظم، من جميع أَصْقااعِ الدُّنيا.

لم يَكُنْ جُونُ شَكْسِيرُ والدُ وَلِيمَ من أبناءِ
ستراتفوردَ، إذ كان أبوه — جَدُّ وَلِيمَ — واسمُه
ريتشاردُ شكْسِيرُ، يملكُ مَزْرَعَةً في «إشتر فيلد»
في شماليِّ ستراتفوردَ، ومنها تَزَحَّتِ الأسرةُ إلى
ستراتفوردَ، يومَ كانَ والدُ وَلِيمَ في شَرَحِ شَبَابِهِ،
وكانَ يومَذاك يَمْتَهِنُ صِناعَةَ القُفَّازاتِ وغيرها من
المَصْنُوعاتِ الجلديةِ الدقيقَةِ، فشاعَرُنا الأعظمُ إذا
هو سَلِيلٌ لِأُسْرَةٍ من مُلَّاكِ الأَرْضِ، وقد أنصَرَفَ
أبوه بعدَ استنزافِ أملاكِ الأسرةِ إلى الصَّناعَةِ، وزَعَمَ
بعضُ الرواةِ أَنَّهُ كانَ يُتاجَرُ في الصُّوفِ إلى جانبِ
صِناعَةِ الجلدِ، كما زَعَمَ آخرونَ أَنَّهُ كانَ قَصَّاباً،
وهو زَعَمٌ يُفَنِّدُهُ الباحثونَ ويرفُضُونَهُ.

وأما أُمُّ وَلِيمَ السيدةُ «ماري آزدن» فهي ابنةُ
تاجرٍ غنيٍّ كانَ يُقيمُ في بلدةٍ قَريبةٍ من ستراتفوردَ،

وَيُجْمَعُ الْبَاحِثُونَ عَلَى أَنَّهُ سَلِيلٌ لِأَسْرَةٍ مِنْ أَمْجَدِ
الْأَسْرِ وَأَغْرَقَهَا فِي انْكَلَتَرَةِ، وَرِثَ الضِّيَاعَ وَالْبَسَاتِينَ،
فَأَوْصَى بِهَا لِصُغْرَى بَنَاتِهِ — أُمِّ وَلِيمَ — وَلَكِنَّهَا
كُلَّهَا ضَاعَتْ رَهِينَةً لِذَيْنِ، فَلَمْ تَقْرِ الْأُمُّ الَّتِي أَنْجَبَتْ
أَعْظَمَ شُعْرَاءِ الْعَالِمِ مِنْ ثَرْوَةِ أَبِيهَا بِطَائِلٍ، وَلَوْ لَا
ضِيَاعَ تِلْكَ الثَّرْوَةِ الْكَبِيرَةِ لَكَانَ وَلِيمٌ شَكْسِيرٌ نَشْأَ
فِي خَفْضٍ وَرَفَاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَلَكَانَتْ سِيرَةُ حَيَاتِهِ
فِي طُفُولَتِهِ وَتَكْوِينِهِ وَشَبَابِهِ سِيرَةً أُخْرَى !
كَانَ وَلِيمٌ ثَالِثَ أَبْنَاءِ أَبِيهِ، فَقَدْ رُزِقَ جُودٌ
شَكْسِيرٌ قَبْلَهُ ابْنَتَيْنِ تَوَفَّيَا صَغِيرَتَيْنِ، ثُمَّ رُزِقَ بَعْدَ
وَلِيمَ ثَلَاثَةَ صِبْيَانٍ هُمْ جَلَبَرْتُ وَرِيْتَشَارْدُ وَإِذْمُونْدُ ثُمَّ
رُزِقَ بَعْدَهُمَ ابْنَتَيْنِ، وَهَكَذَا كَبُرَتْ الْأُسْرَةُ، وَلَمْ
يَكُنْ كَسْبٌ مُعِيلٌ كَبِيرًا، فَظَلَّ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ
مَا لَا يَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهِ، عَلَى الرِّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ نَشَاطِهِ
وَبَرَاعَتِهِ فِي عَمَلِهِ وَصِنَاعَتِهِ، وَيَبْدُو أَنَّ حَالَتَهُ الْمَالِيَّةَ

قد تحسّنت بعد ميلادِ وليّمْ، إذ اختيرَ في عام
١٥٦٥ م عُمدَة للمدينة ثم رئيساً لبلديّتها عام
١٥٦٨ م، وبذلك أصبح جونُ شكسبيرُ من
أعيانِ مدينةِ ستراتفورْد، وغداً مشهوراً في بلديّه،
وعظّم شأنه، وازدادت حاله مع الأيام تحسّناً،
بفضلِ اجتهاده وحُسنِ إدارته لأعماله، وثقةِ الأهلين
به وتقديرهم إياه، وقد استطاع خلالَ عَشْرِ من
السَّنَوَات أن يرفعَ مُستوى مكاسبه، فظهرت عليه
مظاهرُ الغنى والثراء، واشترى منزليْن في ستراتفورْد،
وبسّطَ الرجلُ يدهُ في الإنفاقِ على أسرته، غيرَ أنَّ
الحالَ لم تدم على هذه الصُّورةِ الزاهية طويلاً، إذ لم
تلبثِ الثروة التي نعيمَت الأسرةُ بخيراتها حيناً أن
تبدّدت، وعادتِ الأسرةُ إلى العُسرِ والضيّق،
واضطرَّ والدُ وليّمْ إلى رهنِ عقاره الذي اشتراه
بِكده ونشاطه، ليتمكّن من الإنفاقِ على أسرته.

قضى وَلَيْمُ شَكْسِيرُ طُفُولَتُهُ فِي مَسْقَطِ رَأْسِهِ
فِي مَدِينَةِ سْتَرَاتْفُورْدَ النَّاعِمَةِ فِي أَحْضَانِ الرَّيْفِ،
وَكَانَتْ طُفُولَةٌ هَادِئَةٌ مِثْلَ جَمِيعِ لِدَاتِهِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي
مِثْلِ تِلْكَ الْبَلَدَةِ الصَّغِيرَةِ، وَيُرَجِّحُ الْبَاحِثُونَ فِي آثَارِهِ
الْمَسْرُحِيَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلْأَشْبَاحِ وَالْجِنِّ
وَالْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ أَنْ يَكُونَ الْطِفْلُ الصَّغِيرُ قَدْ اسْتَمَعَ
فِي طُفُولَتِهِ الْمُبَكَّرَةِ تِلْكَ إِلَى مَا كَانَ يُحْكِي
لِلصَّبِيَّانِ قَبْلَ اسْتِئْذَانِهِمُ لِلنَّوْمِ مِنْ قِصَصِ الْجِنِّ
وَالسَّحَرَةِ وَأَشْبَاحِ الْمَوْتَى وَأَهْوَالِ اللَّيْلِ وَالظَّلَامِ، وَقَدْ
اسْتَطَاعَتْ تِلْكَ الْحِكَايَاتُ أَنْ تَشْرُكَ فِي خَيَالِ الصَّبِيِّ

آثاراً قوية ، وقد أحسن الشاعر فيما بعد استغلالها في
مُسرّحيّته أحسن استغلالٍ .

وعندما بَلَغَ وَلِيْمٌ عامه السابع أُرْسِلَهُ أبوه إلى
المدرسة في ستراتفورد لِيَقْضِيَ فيها قُرابة ثمانية
أعوام هي جِماعُ فَتْرَةِ تَحْصِيلِهِ المدرسي ، في مَرَحَلَتَيْهِ
الابتدائية والثانوية ، لأنَّ الْفَتَى سَيُغَادِرُ المدرسة ، بعد
اشتدادِ الْعُسْرِ وَالضَّيْقِ على أبيه ، لِيُشَارِكَ في الحياةِ
العمليّة ، ولم يَكُنْ قد أتمَّ يومذاك عامه الخامسَ
عِشْرَ ، والباحثون إلى اليوم حائرون في الاِهْتِدَاءِ
إلى مَصَادِرِ ثِقافَةِ الشاعرِ العبقرِيِّ التي تعكسُها
أشعارُهُ ومسرّحيّاتُهُ : ففي رواياتِ وَلِيْمٍ شَكْسِيرِ
أَطْلَاعٌ على أَدَبِ الْأَقْدَمِينَ فكيف تَيَسَّرَ لَهُ ذلكَ
كُلُّهُ وهو الذي لم يُتِمَّ تعليمَهُ الثانويَّ ، ولم تُنَحَّ
له دراسةٌ جامعيّةٌ بعد ذلك !

يقولُ أَحَدُ البَاحِثِينَ : «إِنَّ اللُّغْزَ الَّذِي يُحَيِّرُ حَقّاً
فِي حَيَاةِ شَكْسِيرِ الْعَظِيمِ هُوَ عَدَمُ اسْتِقَامَةِ مَا نَعْرِفُهُ
عَنْ ثِقَاتِهِ الرَّسْمِيَّةِ مَعَ أَدَبِهِ الْعَالَمِيِّ الْمَجِيدِ الَّذِي يَنُمُّ
عَنْ عِلْمٍ مُسْتَفِيزٍ وَعَمِيقٍ بِتُرَاثِ الْأَدَبِ الْإِنْسَانِيِّ،
أَغْلَبُ الظَّنِّ فِي مَنَابِعِهِ الْأَوَّلَى!!»

الشائعُ عَنْ شَكْسِيرِ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا «رُبْعَ مُتَعَلِّمٍ
أَوْ نَصْفَ مُتَعَلِّمٍ عَلَى أَكْثَرِ تَقْدِيرٍ» فَهُوَ لَمْ يُتِمَّ
تَعْلِيمَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ لِضَيْقِ ذَاتِ يَدِ أَبِيهِ، وَقَدْ
تَرَكَ الْمَدْرَسَةَ لِتُسَاعِدِ أَبَاهُ فِي عَمَلِهِ وَتَحْصِيلِ عَيْشِهِ، ثُمَّ
اسْتَغْرَقَتْهُ الْحَيَاةُ الْعَمَلِيَّةُ عَنِ الدِّرَاسَةِ الْمُنْتَظِمَةِ،
فَكَيْفَ تَيَسَّرَ لِهَذَا الرَّجُلِ النَّاqِصِ الثَّقَافَةِ أَنْ يُعَلِّمَ
نَفْسَهُ تَعْلِيمًا رَفِيعًا يُتِيحُ لَهُ أَنْ يُنْشِئَ كُلَّ هَذَا
الْأَدَبِ الْعَظِيمِ الَّذِي نَجَدُهُ فِي مَسْرَحِيَّاتِهِ، وَالَّذِي يَدُلُّ
عَلَى فِلْسَفَةٍ عَمِيقَةٍ وَثِقَافَةٍ وَاسِعَةٍ وَذَكَاءٍ خَارِقٍ!

إِنَّ فِي الْأَمْرِ لَغَزاً يَنْبَغِي حَلُّهُ!

من هنا انطلقت دراسات تَزْعُمُ أَنَّ وراء المسرحيات المنسوبة إلى شكسبير شخصيات أخرى هي التي ألفتها أو شاركت في تأليفها، كما انطلقت مَزَايِمُ أخرى تقول إن كثيراً من مسرحيات شكسبير كانت مسرحيات موجودة فعلاً، وأنَّ شكسبير تناولها بالإصلاح والتثقيج بحيث جعلها في حالتها المعروفة الآن، أو أنه أعاد صياغتها على طريقته، وأنَّ هذا هو الذي مكَّنه من تحقيق هذا الانتاج الضخم ولو أنه كان هو مُبتكر هذه المسرحيات مِنْ أصولها لَمَا تَمَكَّنَ مِنْ إِنْجَازِ هذا المحصول المسرحيِّ البالغ الوفرة!

والحقُّ أَنَّ ثقافة شكسبير التي أعطت مسرحياته، تَغْدُو لُغْزاً مُحِيرًا عندما نَقْبَلُ الآراء

الشائعة عن نُقصان ثقافته وتعليمه، وهي آراء يَسْخُو
بها المؤرِّخون لِحياة العُظماء لكي يَفْتِنُوا بها القُراء،
فَرَجُلٌ «رُبْعٌ مُتَعَلِّمٌ» مثلُ شكسبير يُنتِجُ هذا الأدبَ
الشامخَ الخالدَ أمرٌ يَسْتَشِيرُ إعْجابَ القُراءِ، وقصةُ
العظيم لا تكون فائِنةً جَذابةً إلّا إذا ارتَقَتْ به من
الحَضِيضِ الأسفلِ إلى الأوجِ الأعلى: فهذا
القَصَّابُ ابنُ القَصَّابِ يُصْبِحُ أكبرَ عبقريةٍ شعريةٍ في
الدُّنيا، وهذا الرجلُ الناقصُ الثقافةُ يُنتِجُ أعظمَ
أدبٍ غَنِيٍّ بالفلسفةِ والثقافةِ والذكاءِ! تناقُضات
تستثيرُ إعْجابَ الناسِ من القُراءِ وتُرْضي أذْواقَهُم!

إن ثقافة شكسبير الحقيقية هي ما تَكْشِفُ
عنه آثاره وأعماله، وقد استطاعَ العبقرِيُّ أنْ
يُحْصَلَ هذه الثقافةُ من دراستِهِ الرسميةِ أولاً ثُمَّ من
مُتَابَعَةِ القِرَاءَةِ، وتعليمِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، والكتابُ خيرُ

مُعَلِّمٍ كَمَا يَقُولُونَ، وَفِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُبَرِّزِينَ فِي
كُلِّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةٍ الْأَرْضِ، عَلَّمُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ،
بَعْدَ دِرَاسَتِهِمُ الْأَوَّلِيَّةِ عَلَى مُعَلِّمِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا أَرْفَعَ
الدَّرَجَاتِ.

هناك أدلة في أدب شكسبير على أنه كان
مُطَّلِعاً على أهم آثار التراث اليوناني والروماني،
وقد كان أكثر ذلك التراث في عصر شكسبير غير
مُترجم إلى الانكليزية، ولا سبيل إلى قراءته إذ ذاك
إلا في اليونانية أو اللاتينية، والمعروف أن شكسبير
تعلم اللاتينية والاعريقية (اليونانية القديمة) في
مدرسة ستراتفورد، وطالع أجزاء من الأدب
اللاتيني كان لها أبلغ الأثر في تكوينه الأدبي،
ومهما يكن حظ شكسبير من هاتين اللغتين قليلاً
فإن مسرحياته فيها الدليل على قراءته للشاعر

الرَّومانيَّ (أوفيد) وتأثيره به واستعارته لبغض
شخصياته من أدبه، كما أنَّ في مسرحياته أثراً
لآخرين من أعلام الأدب اللاتيني مثل «بلوتس»
و «جوفنال» ممَّا يُؤكِّد لنا أنَّ الفتى عندما غادر
ثانوية ستراتفورد^{١٢}، إلمام دقيقٍ وواسعٍ باللغة
اللاتينية وأعلام أدبها.

والباحثون في أدب شكسبير يُرجِّحون معرفة
الشاعر بمبادئ عددٍ من اللغات الأخرى
كالفرنسية والإيطالية، من خلال العبارات المنشورة
من هاتين اللغتين في مسرحياته، ويبدو أنَّ احتكاك
شكسبير ببعض الجاليات الأجنبية في لندن، بعد
انتقاله إليها أتاح له معرفةً بمبادئ لغاتها، ويظنُّ
بعضهم أنَّ شاعرنا زار عدداً من البلاد الأوربية،
ومنها فرنسا وإيطاليا، وأفاد من تلك الزيارات

مَعْرِفَتِهِ بِمَبَادِيءِ تِلْكَ اللُّغَاتِ !

والحقُّ أن سِتَاراً من الغُمُوضِ يُغَطِّي بعضَ
الْفَتَرَاتِ من حَيَاةِ شَكْسِيرَ: كهذه الفترة التي
تَلَتْ تَرْكَهُ لِلْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ فِي سِتْرَاتْفُورْدَ لِإِسَاعِدَ
أَبَاهُ فِي ضَائِقَتِهِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ
تَعْلِيمِ نَفْسِهِ بِمُؤَالَاةِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّحْصِيلِ، وَمَسْرَحِيَّاتِهِ
تُبَيِّحُ لَنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّهُ كَانَ فِي صَدْرِ شَبَابِهِ مَرِحاً
كَثِيرَ التَّجَوُّالِ فِي الْحُقُولِ، عَمِيقَ الْإِطْلَاعِ عَلَى حَيَاةِ
الرَّيْفِ، فِي مَسْرَحِيَّاتِهِ ذِكْرٌ لِلجِيَادِ وَكِلَابِ الصَّيْدِ
وَالْغِزْلَانِ وَالصُّفُورِ، مِمَّا يُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّهُ عَاشَ فِي
أَحْضَانِ الطَّبِيعَةِ زَمَناً، وَاکْتَسَبَ مِنْهَا تَجَارِبَ أَحْسَنَ
اسْتِغْلَالَهَا فِي رِوَايَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وهُنَاكَ رِوَايَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ اشْتِغَالِ شَكْسِيرَ فِي
هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ حَيَاتِهِ بِالتَّدْرِيسِ فِي مَدْرَسَةِ رِيْفِيَّةٍ،

غير أن الباحثين لا يجدون دليلاً يؤيّد صحة هذه
الرواية أو ينفيها، ومسرحيات شكسبير إذا عرّضت
لتصوير أحد المعلمين صوّرتُه على هيئة تدعو إلى
السُّخْريّة، وتبّعتْ على التحقير والزّراية، مما يدفع إلى
الظنّ بأن شكسبير لم يكنْ يُضمرُ لمهنة التعليم
احتراماً أو تقديراً.

الباب الثاني

كفاحُ شكسبير في الطريق إلى القِمةِ.

غادر شكسبيرُ مدرستَه الثانويَّةَ في ستراتفوردَ عامَ ١٥٧٨ م وهو دُونَ الخامسةَ عشرةَ من سَنَوَاتِ حياتِه لِيَبْدَأَ كِفاحَه العلميَّ إلى جانبِ أبيه، عَوْنًا لَهُ في عُشرِه وضيقِ ذاتِ يده، وقد أَمْضَى الفتى سَبْعَ سنواتٍ في بَلَدَتِه قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَها عامَ ١٥٨٥ م إلى لُنْدُنَ، حينما أدركَ أَنَّ ستراتفوردَ لَنْ تَسْتَطِيعَ تحقيقَ مطامِحِه الكبيرةِ في المُستقبلِ الذي يَحْلُمُ بِأَمْجاده لِنَفْسِه، وقد أَتَا حَتَّ لُنْدُنَ لِلشاعرِ العِقرِيِّ خِلالَ سَبْعِ سنواتٍ أُخرى أَنْ تُوصِلَهُ إلى النِجاحِ، فإذا هُوَ عامَ ١٥٩٢ م نَجْمٌ سَاطِعٌ، وَعَلَمٌ من أَعلامِ المَسْرَحِ والتمثيلِ في العاصِمَةِ الكبيرةِ، وسُحَّاولٌ في هذا البابِ أَنْ نَتَبَيَّنَ خُطُواتِ كِفاحِه في طريقِه إلى

القمة منذ تركه المدرسة حتى أصبح علماً بارزاً فوق
مسارح لُنْدُن.

والباحثون يتحدّثون عن الغموض الذي يكتنف
هذه المرحلة من حياة شاعرنا العظيم، وقد أشرنا إلى
ذلك من قبل، فنحن لا نعرف كيف أمضى أعوامه
في ستراتفورد بعد تَخْلِيهِ عن المدرسة إلى أن بلغَ
الحادية والعشرين من عُمره، وهناك روايات كثيرة
ومتناقضة تجعلنا في يأسٍ من أن نعلمَ علماً اليقين ما
كانت صناعته التي يترزق منها حينذاك، فهل كان
يعملُ في التدريس، أم في صناعة الجلود، أم
في بيع اللحوم!! أم كان يعملُ في الزراعة
ورعي الماشية فيقضي أيامه في حِرَاسَةِ قطعانها في
الحقول والمراعي الخصيبة التي تُحيط بِستراتفورد
من كُلِّ جانب!

بعض الروايات تقول إنه كان يُمضي نصفَ
نهاره الأول في مُساعدة أبيه في بيع اللحم والزراعة،
ويقضي نصفه الثاني في رعاية بضع بقرات وهي
ترعى في الحقول القريبة، حيث كان الفتى الحالم
يتركها ترعى، بينما ينصرف هو إلى قراءة كتاب
يحمّله، أو كتابة بعض المقاطع الشعرية التي كانت
موهبتُه المُفتحة تجودُ بها، حتى إذا انقضى النهار،
وغرّبت الشمس، عاد الفتى إلى داره لينصرف بعد
العشاء إلى متابعة القراءة، مُوالياً تثقيف نفسه
بنفسه، مُستظهِراً من الشعر اللاتيني أو الإغريقي
ما يَلذّه، ويجعله على صلة دائمة بهاتين اللغتين
اللّتين تعلّمهما في مدرسة البلدة.

هذه الروايات عن حياته قبل رحيله إلى لندن
يُحيط بها غموض، غير أنّ واقعة من وقائع حياته

خلال هذه الفترة تبدو لأعيننا حقيقة لا يغتريها الشك، وهي حادثة زواجه المبكر عام ١٥٨٢، وهو في الثامنة عشرة من عمره من ابنة أحد المزارعين الأغنياء المقيمين على مقربة من البلدة، وهو زواج يُثير التساؤل والدهشة، لأكثر من سبب! فقد كانت الفتاة (آن هاثاواي) قد أتمت عامها السادس والعشرين، فهي تكبر وليم شكسبير بثمانية أعوام، وقد وقع الزواج في ظروف غير ملائمة لأسرة شكسبير التي كانت تعاني من الضيق المادي ما جعلها تحرّم الفتى الموهوب من متابعة دراسته النظامية، وتدفع به إلى الحياة العملية ليُسهم إلى جانب أبيه في كسب لقمة عيش الأسرة وتأمين نفقات حياتها، وما انقضى على زواج الفتى خمسة أشهر حتى وضعت له الزوجة أولى بناته (سوزانا)

في السادس والعشرين من أيار عام ١٥٨٣ ! وبعضُ
الباحثين يُصرِّحون بأنَّ شكسبير وجدَ نفسه وهو في
الثامنة عشرة مُتورطاً في الزَّواج من آن هاثاواي بعدَ
أن حَمَلَتْ مِنْهُ سِفاحاً، وآخرون لا يرونَ في الأمرِ
تورطاً، ويقولون إنَّ الزَّواج في انكلترا في القرنِ
السادس عشر كانَ يَتِمُّ على مَرَحَلَتَيْنِ: زواجٍ قانونيٍّ
وزواجٍ شرعيٍّ، وقد تَفَصَّلُ الزَّواجين فترةً طويلةً،
ولهذا فإنَّ إنجابَ (آن هاثاواي) مولودتها بعدَ خمسةِ
أشهرٍ من زواجها الشرعيِّ المُسجَّل ليس فيه مأخذٌ
في عُرفِ ذلك العَصْرِ.

وفي نهايةِ عامَيْنِ من ذلك الزَّواج رُزِقَ وَلِيمٌ
شكسبير من زَوْجَتِهِ تِلْكَ تَوَّامَيْنِ، وَلِداً وَبنتاً،
فأصبحَ وهو ما يَزَالُ في الحاديةِ والعشرين رَبَّ أُسْرَةٍ
تنمو وتزْدَادُ، وَوَجَدَ وَلِيمٌ نَفْسَهُ بِحَاجَةٍ إِلَى مُوَالاةِ

الكّد والعمل المُضني في ذلك الرّيف المَعزُول
لِيَكْسَبَ رِزْقَ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ عِبْءاً
إِضَافِياً عَلَى أَبِيهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سُوءِ أَحْوَالِهِ الْمَادِيَةِ
وَنُضُوبِ مَوَارِدِ عَيْشِهِ؛ إِلَّا أَنَّ فُرْصَةَ الْعَمَلِ فِي
سُورَاتٍ لَمْ تَكُنْ كَبِيرَةً، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُجَرِّبَ
حَظَّهُ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى، بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا وَالْعَمَلِ فِيهَا،
لَوْلَا ارْتِبَاطُهُ بِزَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَشُعُورُهُ بِمَسْئُولِيَّتِهِ نَحْوَ
أُسْرَتِهِ الَّتِي يَخْشَى أَنْ يُغَامِرَ بِاصْطِحَابِهَا مَعَهُ لَلْبَحْثِ
عَنْ لُقْمَةِ الْعَيْشِ، فِي دُرُوبٍ وَغَرَةٍ مِنَ الْكِفَاجِ
وَالْتَشَرُّدِ وَالْإِرْتِزَاقِ!

وَلَكِنْ ظُرُوفاً صَعْبَةً أَحَاطَتْ بِهِ يَوْمَ ذَلِكَ وَدَفَعَتْهُ
إِلَى التَّعْجِيلِ فِي مُغَادَرَةِ بَلَدَتِهِ الصَّغِيرَةِ..

يَزْعُمُ الرواةُ أَنَّ وليم شكسبير كانَ يَوْمَذاكَ
يُصاحِبُ عَدَدًا من الرِّفاقِ الشُّبانِ المَاجِنينَ
المُسْتَهْتَرينَ، فَسَوَّلَتْ لَهُمُ أَنْفُسُهُم ذاتَ يومٍ أَنْ
يَتَسَلَّلُوا إلى حَديقَةِ أَحَدِ أَثرياءِ المِنطَقَةِ، السيدِ
توماس لُوسي، على مَقَرَّبَةٍ من سِثْرائفُورْدَ، لِيَسْرِقُوا
مِنها بَعْضَ غِزْلايِهِ، فَشَعَرَ بِهِم الحُرَّاسُ وَأَمْسَكُوا
بِبَعْضِهِم، وَكانَ وليمُ شكسبيرُ في جُمْلَةٍ مَن تَمَّ
القَبْضُ عَلَيْهِم، فَوُضِعَ في مَحْبِسِ الاتِّهامِ حيناً،
وَكانَتْ هذه الحادِثَةُ ذاتَ أثرٍ كَبيرٍ في شاعِريَّةِ
الشابِّ المَوْهُوبِ، إِذْ فَجَّرَتْ الباكورةَ الأولى من
شِعْرِهِ، فَأَنشَأَ حِكايَةً مَنظُومَةً يَهْجُو بِها السَّيِّدَ

لُوسِي، انتقاماً لِمَا أَصَابَ وَلِيمَ ورفاقه من فضيحة السرقة والسَّجْنِ! وأثارَ هِجاءَ الشابِّ ثائرةَ السيدِ لُوسي وغضبه، وهو واحدٌ من أربابِ النُّفُوزِ في تلكَ المِنطَقَةِ، فَشَدَّدَ النِّكَيرَ على الشاعرِ السَّارِقِ، فلم يَجِدْ وَلِيمٌ شَكْسِيرَ آنذاك بُدّاً من الفرارِ إلى لُنْدنَ، لِلنَّجاةِ بِنَفْسِهِ!

وَيَزْعُمُ رُؤَاة آخرونَ أنْ شَكْسِيرَ غادرَ ستراتفورْدَ يَوْمَذاك لِعِدَّةِ أسبابٍ، أَهْمُهَا إدراكُه أنَّ بِلَدَتِهِ الصَّغِيرَةَ لَا تَتَّسِعُ لِأَمَالِهِ الكَبِيرَةِ ومَوَاهِبِهِ المُتَفَتِّحَةِ، وَهُوَ لَوْ بَقِيَ فِيهَا يَكْذُبُ وَيَعْمَلُ لِكَسْبِ لُقْمَةِ عَيْشِهِ وَأَسْرَتِهِ لَقَضَى عَلَى مَوَاهِبِهِ تِلْكَ قَضَاءَ مُبَرِّمًا، فَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النِّجَاةِ بِنَفْسِهِ، لِيَشُقَّ الطَّرِيقَ إِلَى المُسْتَقْبَلِ الأَفْضَلِ الَّذِي يَحْلُمُ بِهِ، فَاتَّخَذَ قَرَارَهُ الحَاسِمَ بِمَغَادِرَةِ ستراتفورْدَ، وَقَدْ وَاتَّهُ الفُرْصَةُ المَلائِمَةُ

عندما وَفَدَتْ فرقةُ ايرل ليستر المسرحيةُ على بَلَدَتِهِ
لِتَقْدِيمِ بعضِ عُروضِها المسرحيةِ فيها، فَاتَّصَلَ ببعضِ
أفرادِها، فَدَعَاهُ إِلَى العملِ مَعَهُمْ لما شَاهَدُوا مِنْ
مَوْهَبَتِهِ وَبِرَاعَتِهِ فِي الْأَوَاءِ التَّمثِيلِيَّةِ، فَاسْتَجَابَ
شَكْسِيرٌ لِدَعْوَتِهِمْ، وَأَقْنَعَ أُسْرَتَهُ وَأَهْلَهُ بِالْمُوَافَقَةِ عَلَى
انْضِمَامِ الشَّابِّ الْمُثَمِّلِ الْهَآوِي إِلَى تِلْكَ الْفِرْقَةِ،
وَالْعَمَلِ فِيهَا، وَهَكَذَا وَضَعَ الشَّابُّ الْمَوْهُوبُ أَقْدَامَهُ
عَلَى بَدَايَةِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلَةِ إِلَى مَجْدِهِ الْأَدَبِيِّ
وَالْمَسْرُحِيِّ الْعَظِيمِ..

وَلَكِنَّ الدَّرَبَ الْوَعَرَ إِلَى الْمَجْدِ مَا يَزَالُ طَوِيلًا
أَمَامَ الشَّابِّ الشَّاعِرِ الْمُثَمِّلِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَّابِعَ خُطَا
مَسِيرَتِهِ وَكِفَاحِهِ، وَهُوَ يَجْهَدُ فِي تَذْلِيلِ الْعَقَبَاتِ،
وَيُحَقِّقُ النِّجَاحَ تِلْوَ النِّجَاحِ، فِي صُعودِهِ الْعَبْقَرِيِّ
الدَّائِبِ نَحْوَ قِمَّةِ مَجْدِهِ الْعَظِيمِ.

وهنا فترة أخرى تكتنفها سحابة من الغموض
في حياة شكسبير، منذ مغادرته ستراتفورد عام
١٥٨٥ م إلى أن أصبح في لندن عالماً بارزاً من
أعلام الأدب والمسرح عام ١٥٩٢ م. سنوات سبع،
بين عامه الحادي والعشرين وعامه الثامن
والعشرين، شهدت في البداية التحاقه بالفرقة
التمثيلية، وتجوّاله معها في رحلاتها عبر انكلترا
وبعض البلاد الأوربية مثل هولاندة وبلجيكة،
قبل أن يستقرّ بها المقام في لندن آخر المطاف !

بعض الروايات تصوّر لنا شكسبير في بداية
نُزوحه إلى لندن، يعمل في حراسة الجياد التي

يَعْقِدُ إِلَيْهِ بِهَا أَصْحَابُهَا خِلَالَ حُضُورِهِمْ حَفَلَاتِ
الْمَسْرَحِ: يَقُولُ الدَّكْتُورُ جُونْسُون — أَحَدُ مُؤَرِّخِي
حَيَاةِ شَكْسْبِيرِ الْأَوَّلِينَ: «كَانَتِ الْعَرَبَاتُ قَلِيلَةً فِي
عَصْرِ الْيَزَابِيتِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا مَا يُسْتَأْجَرُ، فَكَانَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَشْمَخُونَ بِأَنْوْفِهِمْ، أَوْ تَبْلُغُ بِهِمْ رِقَّةُ
الْجَسَدِ وَالْكَسَلِ حَدًّا يَعْجِزُونَ مَعَهُ عَنِ السَّيْرِ عَلَى
أَقْدَامِهِمْ، يَمْتَشُّونَ ظُهُورَ الْجِيَادِ إِلَى الْمَكَانِ الْبَعِيدِ،
يَقْصِدُونَهُ لِلْعَمَلِ أَوْ التَّنْزُّهِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ كَانُوا
يَذْهَبُونَ إِلَى مَسْرَحِ التَّمْثِيلِ عَلَى جِيَادِهِمْ، فَلَمَّا فَرَغَ
شَكْسْبِيرُ إِلَى لُنْدَنْ، فَازِعًا مِنْ تَهْمَةِ السَّرِقَةِ، كَانَتْ
أُولَى وَسَائِلِهِ فِي كَسْبِ عَيْشِهِ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ بَابِ
الْمَسْرَحِ لِيُتَمَسِكَ بِجِيَادٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ خَدَمٌ
لِذَلِكَ، لِيُعِدُّوا الْجِيَادَ إِلَى سَادَتِهِمْ عِنْدَ نَهَايَةِ التَّمْثِيلِ،
فَتَمَكَّنَ شَكْسْبِيرُ بِعِنَايَتِهِ وَحُسْنِ اسْتِعْدَادِهِ أَنْ يُبَرِّزَ فِي

هذا العمل، وما هو إلا أن صار كُلُّ مُترَجِّلٍ عن
جَوَادِهِ يَصِيحُ: «وَلَيْتَ شَيْكْسِير!» حتى أوشك ألا
يُعْهَدَ بجَوَادٍ إلى سِوَاهُ ما دَامَ حَاضِرًا؛ وكَأَنَّمَا كَانَ
ذلكَ أَوَّلَ بَارِقَةٍ لِلْحَظِّ السَّعِيدِ، فلَمَّا تَكَاثَرَتِ الْجِيَادُ
على شَيْكْسِيرٍ اسْتَأْجَرَ صَبِيَّةً يُعَاوَنُونَهُ، فَإِذَا مَا نَادَى
صَاحِبُ الْجَوَادِ: شَيْكْسِير! سَارَعَ الصَّبِيُّ مِنْ هَوْلَاءِ
قَائِلًا: «أَنَا مُعَاوَنُهُ يَا مُوَلَايَ!»؛ وَانْتَقَلَ شَيْكْسِيرُ
بَعْدَئِذٍ إِلَى مِهْنَةٍ أَرْفَعَ شَأْنًا، لَكِنْ ظَلَّ خَدَمُ الْجِيَادِ
يَحْتَفِظُونَ بِهِذِهِ الْكُنْيَةِ «مُعَاوَنَ شَيْكْسِيرٍ» مَا بَقِيَ
السَّادَةُ يَقْصِدُونَ إِلَى الْمَسْرَحِ بِجِيَادِهِمْ!.

ولَكِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ عَنِ الْكِفَاحِ الشَّاقِّ لَشَيْكْسِيرٍ
فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْقَاسِيَةِ مِنْ حَيَاتِهِ فِي لُنْدَنَ لَمْ تَسْلَمْ
مِنَ النَّقْدِ وَالتَّفْنِيدِ، وَسِوَاءِ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ أَوْ
كَذَبَتْ، فَقَدْ تَمَكَّنَ الشَّابُّ الْمُكَافِحُ مِنَ الْإِنْتِقَالِ

إلى داخل المسرح بعد حين: يُعاونُ المُلَقَّن أولاً،
ثم يُعاونُ الممثلين عند اقترابِ دَوْرِ كُلِّ واحدٍ منهم،
استعداداً لظهوره على المسرح، وأخيراً يُشاركُ في
تمثيل بعض الأدوار بديلاً عن الممثلين الغائبين،
ومن هنا تَبَرُّزُ هــ٥٠٥هـ، ويَصْعَدُ دَرَجَاتِ النجاح
قَفْزاً، ويعلو شأنه مُمَثِّلاً وناثباً، ويُصبحُ عَلماً من
أعلام المسرح والأدب في عام ١٥٩٢ وهو في
عامه الثامن والعشرين، ويشتدُّ التنافسُ بينه وبين
عددٍ من كبار كُتَّابِ المسرح والمؤلفين له، ويتِمَكَّنُ
بِقُوَّةِ شاعريته ومواهبه الأصيلة من تحقيق السَّبقِ
عليهم، وبينما كان بعضهم يُنكِرُ على الشابِّ العبقرى
قُدْرَتُهُ على صياغة الشعر الجيِّد يُقدِّمُ شيكسبير آيَّته
الشعرية الخالدة، وهي قصيدته «فينوس
وأدونيس» في نيسان ١٥٩٣ م ويُهديها إلى أحد

النُّبلاء وهو «ايرل سوثمبتن» طمَعاً في الفوز
برعايته، ولم تَكِدِ القصيدة تُنشر في الناسِ حتى أَقبلُوا
على قراءتها مُتَلَهِّفِينَ، وطُبِعَتْ تِسْعَ مَرَاتٍ في أعوامٍ
قليلةٍ، وكانَ نَجَاحُهَا الْعَظِيمُ بُرْهَاناً على عبقريةِ
صاحبِها ونُبوغِهِ، كما كانتَ رَدّاً مُتَحَدِّياً لجميعِ
المُنَافِسِينَ، وفي العامِ التَّالِي — ١٥٩٤ م — أخرجَ
شاعرُنَا الْعَظِيمُ دُرَّتَهُ الثَّانِيَةَ، وهي قصيدةُ
«اغْتِصَابِ لوكريس» وأهداها إلى حاميه النِّبيلِ
«ايرل سوثمبتن» فأغْدَقَ عَلَيْهِ الْعِطَاءَ، وبدأ
شيكسبيرُ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ يَعْرِفُ الْيُسْرَ في حَيَاتِهِ بَعْدَ
طَوِيلِ الضِّيقِ وَالْعُسْرِ، وبدأ يَجْنِي ثَمَارَ كِفَاحِهِ الشَّاقِّ
الطَوِيلِ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ، وَاتَّسَعَ
الرِّزْقُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وتَعَدَّدَتْ مَوَارِدُ كَسْبِهِ: مِنَ
الْكِتَابَةِ وَالتَّأْلِيفِ، وَمِنَ التَّمْثِيلِ الْمَسْرُوحِيِّ، وَمِنَ

المُشاركة في تأسيس بعض مسارح لندن وتمويله، وفاض عليه المال، حتى تمكن من تجديد ثروة أسرته في ستراتفورد، وكانت صلاته ببلدته وأهله وأسرته هناك لا تنقطع أبداً، فهو يوالي زيارته للبلدة التي أصبحت تفخرُ بابنها البار، والأنباء التي تصلُ إليها عن أجداده العظيمة في حقول الشعر والأدب والمسرح والتمثيل.

الباب الثالث

شيكسبير في أفج مجده
الأدبي والفني

يُقَسِّمُ الباحثونَ حياةَ شكسبيرِ الفنيةَ إلى أربعِ
مراحلٍ مُتَمَيِّزَةٍ، يَرُصِّدُونَ من خِلالِها تَطَوُّرَ فنِّه
المسرحيِّ والعددَ الكبيرَ من الرواياتِ التي أَلَّفَها
للمسرحِ، وخيرٌ لنا أن نسيرَ نحنَ معَ تلكَ المراحلِ
لِنَشْهَدَ في كُلِّ واحدةٍ منها أهمَّ أعمالِ الشاعرِ العظيمِ
وأهمَّ الأحداثِ في حياته فيها.

فأما المرحلةُ الأولى فهي التي تَنْتَهِي بِعامِ
١٥٩٦ م وقد خُتِمتْ بِفاجِئَةٍ في حياةِ شكسبيرِ وهي
مَوْتُ وَلَدِهِ الذَكَرِ الوَحِيدِ (هَامَنْت) الذي جَاوَزَ
العاشرةَ من عُمرِهِ بِقَلِيلٍ وَقَدْ خَلَّفَ مَوْتُ وَلَدِهِ في

قلبه جرحاً لا يندمل! وهذه المرحلة تمثل كفاح
الفنان العظيم لتثبيت أقدامه في فنه، وتحقيق آماله
الكبيرة في الوصول إلى القمة التي يحلم بها، وقد
شهدنا إخراجَه لقصيدتيه (فينوس وأدونيس)
و (اغتيصاب لوكريس) في هذه المرحلة فدلّل بهما
على عبقريته الشعرية الخصبّة، أما في تأليفه
المسرحي لهذه المرحلة فالباحثون يقرّرون أنّ شكسبير
لم يكذّ يصنّع أكثر من تنقيح ما وصل إليه من إنتاج
غيره، مُستغلاً قدرته الشعرية الفائقة على التعبير،
وتَمَكُّنه من صياغة الفكرة الواحدة في عبارات
كثيرة مُختلفة، مُستخدِماً ألوان الصّور البيانية
والبديعية لتجميل العبارة وإحكام بنائها، فمن
روايات هذه المرحلة:

«تيتس أندرونكس»

و «هَنري السَاسُ» (بأجزائها الثلاثة)
و «ملهاةُ الأخطاء» (أو كوميديا الأخطاء)
و «جُهدُ الحبِّ الضائع»
و «حُلمُ ليلةٍ في مُنتصفِ الصيف»
و «ريتشاردُ الثالث»
و «سَيِّدانِ من فيرونا»
و «رُوميو وجُولييت»
و «ريتشاردُ الثاني»
و «الملكُ جُون»

ولَمّا كان انتاجُ هذه المرحلةِ من المسرحياتِ
مُتأثِّراً بحماسةِ الشبابِ وتَدَفُّقِهِ العاطفيِّ فقد جاءتِ
الرواياتُ فَيَّاضَةً بِالْعاطفةِ، وَالْعباراتِ الرنَّانَةِ،
وفِيها الدَّلِيلُ على تَمَكُّنِ شَكْسِيرَ في مُسْتَهَلِّ حَيَاتِهِ
الأدبيةِ من إِحْكامِ الصياغةِ وَقُوَّةِ التعبيرِ، وفيها

الدليلُ أيضاً على مَيلِ الشاعرِ العظيمِ إلى استعادةِ
مَوْضُوعِ مسرحياته من التاريخ، وتاريخِ بلادهِ
— انكلترَة — بِصورةٍ خاصّةٍ، وَسَيُكْثِرُ شكسبيرُ من
انتاجِ المسرحياتِ التاريخيّةِ في المراحلِ القادمةِ.

وأما المرحلةُ الثانيةُ فهي التي تمتدُّ من عام
١٥٩٦ م إلى عام ١٦٠٢ م وقد خُتِمتْ بِوفاةِ والدِ
الشاعرِ، جُونِ شيكسبيرِ، وكانَ وَلِيمٌ شديدَ البرِّ
بأبيه، وفي مَطَلَعِ هذه المَرَحَلَةِ أرادَ الشاعرُ أن يَرْفَعَ
من شأنِ أبيه في ستراتفورْدَ فابتاعَ له شارةَ الشَّرَفِ،
وكانتِ الدولةُ لا تبيعُ تلكَ الشاراتِ إلا لِسُراةِ القومِ
وأعيانِهِم، وكانَ المَالُ قد فاضَ في يَدَيِ الشاعرِ من
مَدْخُولِهِ الكبيرِ، من التَّأليفِ والتَّمثِيلِ وتوظيفِ ما
تجمَّعَ منه في الأَعْمَالِ الأخرى، فاشترى شيكسبيرُ
بعضَ الدُّورِ الفاخرةِ في بَلَدَتِهِ، وَحَرَصَ على أنْ

يجعل أباه فيها في زُمرَة السّادَة من ذَوِي الثّراء،
وكان ذلك كلّهُ من أحلامِ صباه: أنْ يَرُدَّ لأبيه
مكانته وثروته بعد أنْ توالَتْ على أسرته المِحَنُ،
ووقعتْ فريسةً لـ الضّيقِ الماديّ والحِرمانِ، بعد أنْ
كانتْ من مُلأكِ الأرضِ وأعيانِ تلكِ المِنطَقَة
المُوسرين؛ وقد اشترى شيكسبيرُ في ستراتفوردَ
— حيثُ زوجته وابنتاه سوزانا وجوديث — أفخمَ
دارٍ في البلدة، وقد بقيتْ هذه الدارُ إلى اليوم قائمةً،
يَحُجُّ إليها الزّائرون من أضقاع الدُّنيا، وفي مُستَهَلِّ
هذه المرحلةِ الثّانية من حياةٍ وليم شيكسبيرِ الفنّيّةِ
أُخْرِجَ «تاجر البُنْدُقيّة» وهي أكبرُ دليلٍ على بُلُوغِهِ
أوجَ فنّه المسرحيّ، ففيها براعةُ العبقريّ المُبرِّزِ
المؤهَّبِ، وبعدَ إخراجِ هذه المَسرحيّة عامَ
١٥٩٦ م قدّرتِ الدولةُ موهبته وأنعمتْ عليه بلقبِ

(جنتلمان) تقديراً لِفَنِّهِ وإِكْبَاراً لِجُهودِهِ وتَشْرِيفاً لَهُ

من رواياتِ هذهِ المرحلةِ:

«هنري الرابع» بِجُزْأَيْهَا

و «زُوجَاتُ وَندسور المَرحَاتِ»

و «هنري الخامس»

و «جَعَجَعَةُ وَلَا طِخْنُ!»

و «الليلةُ الثانيةُ عشرة»

و «كما تُريدُها»

و «تَرويضُ النَّمِرَةِ»

و «خيرُ كُلِّ ما يَنْتَهي بِخيرٍ»

والمسرحياتُ الخمسُ الأخيرةُ كُلُّها مَلاهُ مِنْ
الطَّرَازِ الأوَّلِ، والمسرحياتُ الثلاثُ الأولى يَعدُّها
النقادُ من التمثيلياتِ التي تَجْمَعُ بين المأساةِ
والمَلْهَةِ، أو هي من المآسي المُضحِكةِ، وقد عَمَدَ

شيكسبير إلى ذلك لِيُخَفِّفَ مِنْ حِدَّةِ مَآسِيهِ بِمَشْهَدٍ
هزليٍّ يَكْسِرُ بِهِ حِدَّةَ التَّوَثُّرِ، وَعُنْصُرُ الْمَلْهَاةِ فِي هَذِهِ
المسرحياتِ الثلاثِ يَقُومُ عَلَى شَخْصِيَّةٍ كوميديَّةٍ هِيَ
شَخْصِيَّةُ (فُولْشْتاف) وَهِيَ أَتْرَزُ شَخْصِيَّةُ
كوميديَّةٍ خَلَقَتْهَا عبقريَّةُ شيكسبير، وَهِيَ نَمُودَجٌ
لِما يُسَمَّى النِّقَادُ ١ لِيَوْمِ «كُومِيدِيَا الطَّبَائِعِ» وَهِيَ
ضَرْبٌ مِنَ الكوميديا يَقُومُ عَلَى السُّحْرِيَّةِ مِنَ
الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُشَوَّهَةِ مِنْ الدَّاخلِ، بِحُكْمِ
تَكْوِينِهَا الْخاطِئِ وَنَفْسِيًّا وَعَقْلِيًّا؛ وَعِنْدَما شَاهَدَتِ
الْمَلِكَةُ الْيَزَابِيثَ مَسْرُوحِيَّةَ «زَوْجَاتِ وَندسور
المرحَاتِ» أَعْجَبَتْ كُلَّ الْإِعْجَابِ بِشَخْصِيَّةِ
«السِيرْجُونِ فُولْشْتاف» فِيهَا، وَتَصَرُّفَاتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ
الْمُنَافِيَةِ لِكُلِّ أَخْلَاقٍ! وَطَلَبَتِ الْمَلِكَةُ مِنْ شيكسبيرِ
أَنْ يُصَوِّرَ لَهَا هَذِهِ الشَّخْصِيَّةَ الَّتِي طَغَتْ عَلَيْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ

طُغْيَانًا جَارِفًا مِنْ جَدِيدٍ وَقَدْ وَقَعَ فُولَسْتَا فِى شِبَالِ
الْحُبِّ، لِيرَى النَّاسُ كَيْفَ يَصْنَعُ الْعَاشِقُ الْأُنَانِيَّ،
وَالْعِشْقُ يَتَطَلَّبُ التَّضْحِيَةَ وَالْإِثَارَ وَنُكْرَانَ الذَّاتِ،
وَالْعَطَاءَ دُونَ مُقَابِلٍ فِى سَبِيلِ نَيْلِ رِضَى الْحَبِيبَةِ!

وَهَكَذَا ظَفَرَ شَيْكْسِيرُ بِإِعْجَابِ مَلِيكَةِ الْبِلَادِ
وَتَقْدِيرِهَا، وَصَادَقَهُ شُيُوخُ الْأَدَبِ وَأَعْلَامُهُ فِى عَصْرِهِ،
وَفَاضَ كَسْبُهُ وَعَظُمَتْ ثَرَوَتُهُ، وَأَصْبَحَتْ مَسْرَحِيَّاتُهُ
تُمَثِّلُ صُورَةَ لِلْازْدَهَارِ الْمَسْرَحِيِّ الْعَظِيمِ فِى عَصْرِهِ.

والمرحلة الثالثة تقع بين عامي ١٦٠٢ و ١٦٠٨ م وقد شهدت وفاة أم الشاعر كما ابتدأت بوفاة أبيه، وانتاج هذه المرحلة يمثل اضطرام نفس الشاعر بلوعة والحزن، وقد تمكن شيكسبير من تقديم عدد من المآسي العظيمة في هذه المرحلة، بلغ فيها أوج سموه الفني، ومن أبرزها:

«هامليت»

و «يوليوس قيصر»

و «كامل بكامل»

و «أنطونيو و كليوباترة»

و «كوريولانس»

و «ترويلس وكرشدا»

و «تيمون الأثيني»

و «عطيل»

و «ماكبت»

و «الملك لير»

والمآسي الثلاث الأخيرة في حُكم النقاد هي
أعظم مآسي شيكسبير كلها، وقد أراد أن يُصوّر فيها
ما تُخلفه الخطايا والجرائم في نفوس مُرتكبيها من
عذاب أليم وشقاء مُقيم، كما أراد أن يُبيّن في جلاء
روح الانتقام التي يَحْمِلُها كُلُّ إنسان بين جوانحه،
وقد تمكّن شيكسبير من تصوير أعماق النفس
الإنسانية تصويراً بلغ فيه القمّة، وبذلك خلقَ
للناس تلك المآسي الرائعة التي يتكفلُ سموها الفني
بخلودها على الدهر.

وكثيرٌ من النقادِ يَعُدُّونَ مأساةَ (عُطَيْلِ) أَكْظَمَ ما بَلَغَهُ فنُّ شيكسبيرِ المسرحي رِفْعَةً وَقُوَّةً، وهي مأساة كاملةٌ، مُثِّلَتْ أَوَّلَ مرَّةٍ عامَ ١٦٠٤ على مسرحِ القصرِ الملكيِّ، وموضوعُها الغيرةُ العَمياءُ وتَدْمِيرُها لِلْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَخُلَاصَتُها بِإِيجازٍ أَنَّ «عُطَيْلَ» جُنْدِيَّ شُجاعٍ، بَسِيطَ الخُلُقِ ساذجُ النفسِ، صرِيحُ نَبِيلٍ، وقد أَحَبَّ «دَيْدَمُونَةَ» الفاتنةَ الجميلةَ، ابنةَ شيخِ البُنْدُقيَّةِ وأَحَبَّتْهُ، وتَزَوَّجَ منها على كُرْهِ من أبيها لِهَذَا الزَّواجِ، وكانَ حُبُّها سَامِيًّا وَنَقِيًّا، فلم تَشُبْهُ شائِبَةٌ، وَخَلَّتْ حَيَاتُهَا الزَّوْجِيَّةُ مِنَ الْمُتَغَصَّاتِ، حَتَّى تَمَكَّنَ الوَاشِي (يَا جُو) مِنْ إِفْسَادِ ما بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، فَدَسَّ فِي عَقْلِ عُطَيْلِ السَّاذِجِ الازْتِيَابَ فِي زَوْجَتِهِ الطَّاهِرَةِ، وَأَثَارَ الشُّكوكِ عَلَيْهَا فِي نَفْسِ الزَّوْجِ الْغَيُورِ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِوُقُوعِ الْكَارِثَةِ، فَقَتَلَ

عُطِّلَ زَوْجَتَهُ الَّتِي يُحِبُّهَا، وَبَعْدَ أَنْ أَزْهَقَ رَوْحَهَا
تَبَيَّنَ لَهُ وَجْهُ الْحَقِّ، وَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً لِلتَّكْفِيرِ عَنْ
خَطِيئَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ! تِلْكَ هِيَ الْقِصَّةُ مُوجِزَةً،
وَقَدْ اسْتَعَارَهَا شِيكْسْبِيرُ مِنْ كِتَابِ (هَيْكَاتوميني)
لِلْكَاتِبِ الْإِيطَالِيِّ جِيرَالْدِي سَنْثِيُو، الَّذِي نُشِرَ
وَتُرْجِمَ إِلَى عِدَدٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْأُورَبِيَّةِ، وَمِنْهَا
الْإِنْكَلِيزِيَّةُ، فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، فَكَانَتْ
الْقِصَّةُ فِي مُتَنَاولٍ يَدِ شَكْسْبِيرَ يَوْمَئِذٍ، وَقَدْ حَافَظَ
عَلَى هَيْكَلِهَا الْعَامِّ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا بَعْضَ التَّعْدِيلَاتِ،
وَبَنَى شَخْصِيَّةَ الزَّوْجِ الْغَيُورِ فِيهَا بِنَاءً دِرَامِيًّا
أَصْبَحَتْ شَخْصِيَّةُ عُطِّلَ فِيهِ بَطْلًا تَرَاوِيحِيًّا يَحْزَنُ
الْمُشَاهِدُ لِمَآسَاتِهِ وَيَتَّخِذُ مِنْهَا مَوْطِنًا لِلْعِبْرَةِ
وَالدَّرْسِ، إِذْ اسْتَطَاعَ شِيكْسْبِيرُ أَنْ يَسْمُوَ فِي
مَسْرَحِيَّتِهِ وَيَجْعَلَ مِنْ مَوْضُوعِهَا دِرَاسَةً عَمِيقَةً فِي

الغيرة الزوجية وأثرها المدمر؛ وشعر شيكسبير في هذه المسرحية يبلغ القمة في التصوير والعاطفة وتقلبات النفس الانسانية في حالتها الرضى والغضب، والسكون والهياج، والهدوء والثورة.

وفي أواخر هذه المرحلة من حياة شيكسبير تزوجت كبرى بناته (سوزانا) من طبيب مشهور في ستراتفورد، وستكون ابنتها (اليزابيث) من هذا الزوج الحفيدة الوحيدة لوليم شكسبير، والتي سيؤول إليها إرثه الكبير وأملاكه، كما سترى فيما بعد.

ثم تجيء المرحلة الرابعة والأخيرة من حياة شكسبير الفنية وتمتد من عام ١٦٠٨ إلى عام ١٦١٣ م قبل أن يغادر لندن عائداً إلى بلده ستراتفورد ليقتضي سنواته الأخيرة فيها.

ومسرحيات هذه المرحلة هي:

«بركليس»

و «سيمبلين»

و «العاصفة»

و «قصة الشتاء»

و «هنري الثامن»

وكان الشاعر العظيم خلال هذه السنوات الخمس الأخيرة من حياته في لندن قد انزاح عن صدره ما كان يجثم عليه من هموم، فراح يعقد صلات الوُد والمحبة مع الناس، ويحاول أن يستعيد ما كان له في صباه من مَرَج، ويَجْعَل شخصيات ملاهيه الأخيرة تضحك من أعماق القلب، ولكنه لم يستطع ذلك، واقتصرت الضحكات على ابتسامات شاحبة تُخفي وراءها قلباً أترعته الحادثات وعصرته الأشجان.

وفي عام ١٦١٣ كان الشاعر الأعظم قد أتم ستاً وثلاثين مسرحيةً، وهو لم يُتَمَّ السابعة والأربعين من حياته الخصبية، فكان يُؤلف مسرحيتين تقريباً في كُلِّ عامٍ من أعوام حياته في لُندن، وقد بذل في التأليف والتمثيل والإشراف على إخراج مسرحياته جهوداً مُضنيّةً، فأحسَّ العبقرى بعد ذلك بحاجته إلى الراحة، فأثر أن يعودَ إلى بلدته الصغيرة، ليعيش فيها مع زوجته وابنتيه، ويُخلدَ إلى نفسه، مُكتفياً بما حققَ من نجاحٍ ماديٍّ وأدبيٍّ عظيم، فلنَعُدَّ مع الشاعر العبقرى إلى ستراتفورد لنشهدَ سنوات حياته الأخيرة في نهاية مطافه الطويل.

الباب الرابع

شيكسبير في نهاية المطاف

عاد شيكسبير إلى ستراتفورد بعد أن أصاب
من النجاح والمجد والثروة ما يكفي، وأن له أن
يستريح بعد طول كد وسعي، فأقام في بيته الذي
اشتراه ومعه زوجته (آن) وابنته الصغرى
(جوديث) ولكن هذه تزوجت بعد حين من رجوع
أبيها، من السيد (توماس كويني) وهو ابن رجل من
تجار ستراتفورد، يتجر بالخمور، وأصبح شيكسبير
يقضي أيامه مع زوجته، متفرغاً للإشراف على
أعماله وزيارة أهله وجيرانه.. وقد أنقطع
العبري عن الكتابة نهائياً، وقد كفاه ما أعطى
من إنتاج خصب يكفل لصاحبه المجد والخلود.

ولعلَّ أكبرَ ما كانَ يشغلُ بالَ شيكسبرَ خلالَ السنواتِ الثلاثِ الأخيرةِ منَ حياتِه، مسألةُ إرثِه، فهو بعدَ زواجِ ابنتِه الثانيةِ كَتَبَ وصيةً تَرَكَ بِمَوجِبِها مُعظَمَ أُملاكِه إلى ابنتِه الكُبرى سوزانا، ثُمَّ تَكونُ لابنِها إنْ أنجَبَتْ ولداً ذَكَراً، أو لابنِ أختِها جُوديث إنْ كانَ لها ابنٌ، فإنْ لم يَكنْ في حَفَدَتِه جَمِيعاً أحَدٌ منَ الذُّكورِ آلَ الإرثِ إلى اليزابيث ابنةِ سوزانا، وهذا ما حَدَثَ فقد انتهت ثروةُ الشاعرِ العبقرِيِّ إلى حَفيدَتِه تلكَ، وبِمَوْتِها انتهت أَسْرَةُ شيكسبرَ، وتبعثرتْ أُملاكُها! أما الزوجةُ (آن) فليسَ لها في وصيَّتِه غيرُ سَريِرٍ من أَسِرَّةِ الدَّارِ، ولم يَكنْ أَفضَلُها، أوصى بِه الزوجُ لها، ويرى الباحثونَ في ذلكَ دليلاً على أنَّ العَلاقةَ بينَ الزوجينِ لم تَكنْ حَسَنَةً في المَرحَلَةِ الأخيرةِ منَ حياتِهما الزوجيةِ.

كان شيكسبير في ستراتفورد يقضي شيخوخة هادئة هائلة، وكان إشرافه على أملاكه وإدارة المزرعة التي اشتراها قبل عقد من السنين، ومساحتها ١٢٧ فداناً، لا يشغل وقته كله، وكان يطيّب له أن يتلقى زيارات من بعض أصدقائه من الأدباء والأعلام، ويروي الرواة أن اثنين من أعلام أدباء عصره وهما «بن جونسون» و«ميخائيل درايتون»، قدما إلى ستراتفورد لزيارته ذات يوم، فاحتفل بزيارتهما، وقضى الثلاثة ليلتهم إلى الصباح في شراب متصل، فسقط الشاعر مخموماً، من الإفراط في السكر، وقضى أياماً تحت وطأة الحمى، إلى أن أسلم الروح إلى بارئها في الثالث والعشرين من نيسان عام ١٦١٦، في نفس اليوم الذي شهد مولده، وقد أتم عامه الثاني

والخمسين، فدفن في كنيسة ستراتفورد، ونُقِشت
على قبره مقطوعة شعرية كان قد أعدها بنفسه
لذلك، وقد جاء فيها:

«أيُّها الصديقُ الكريمُ، ناشدتك الله
ألا تُزيح عني التراب!
بارك الله من يَصُونُ هذه الأحجارَ
واللَعْنَةُ على مَنْ يُرْخِزُ رُفَاتِي!»

وهذه اللعنة التي تُهددُ كُلَّ مَنْ يُحرِّكُ رُفَاتِ
العبقريِّ هي التي حَفِظَتْ رَمِيمَهُ في قَبْرِه، وحالَتْ
دُونَ نَقْلِ رُفَاتِهِ إلى مَقْبَرَةِ العُظَمَاءِ.

وعندما عَمَدَتْ انكلترَةُ إلى الاحتفالِ بِمُروِرِ
أربعمائةِ عامٍ على ميلادِ شاعِرِها الأعظمِ
شيكسبيرِ أقامتْ مِهْرَجَاناً عظيماً خلالَ شهرِ نيسانِ
١٩٦٤ حضرَهُ مندوبونَ يُمثّلونَ أكثرَ دُولِ العالمِ،
وفي صباحِ الثالثِ والعشرينَ من هذا الشهرِ، وهو
يومُ الذكرى، تَجَمَّعَ شُعراءُ أكثرَ من مائةِ دولةٍ مع
عَدَدٍ كبيرٍ من رِجالِ انكلترَةِ وغيرِها عندَ مَسَرِّحِ
شيكسبيرِ في مدينَةِ ستراتفوردَ، وَحَمَلُوا أَكَالِيلَ
الزُّهورِ في مَوَكِبٍ مَهيبٍ حاشِدٍ، مَشياً على الأقدامِ،
حتى وَصَلُوا إلى البَيْتِ الذي وُلِدَ فيه الشاعِرُ
العبقريُّ في شارعِ (هنلي) ثمَّ اتَّجهوا إلى كَنِيسَةِ

(هُولَى تَرِينِيَّتِي) لِيَقِفُوا خَاشِعِينَ أَمَامَ ضَرْيَحِهِ،
وَوَضَعُوا الْأَكَالِيلَ عَلَى قَبْرِهِ، وَنَثَرُوا فَوْقَهُ الْأَزْهَارَ،
وَأَقِيمَتْ مَأْدُبَةٌ كُبْرَى لِلضُّيُوفِ الْوَافِدِينَ، تُلِيَتْ
خِلَالَهَا رِسَالَةُ الْمَلِكَةِ الْيَزَابَيْتِ الثَّانِيَةِ فِي الثَّنَاءِ
عَلَى الشَّاعِرِ الْعَبْقَرِيِّ وَتَمْجِيدِهِ، وَبَعْدَ الْغَدَاءِ افْتَتَحَ
زَوْجُ الْمَلِكَةِ مُتَحَفَ شِيكْسْبِيرِ الَّذِي أُسِّسَ لَهُذِهِ
الْمُنَاسِبَةِ، بِجَوَارِ الْبَيْتِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ الشَّاعِرُ
الْأَعْظَمُ، وَبَلَغَتْ تَكَالِيفُ الْمُتَحَفِ رُبْعَ مَلْيُونِ
جُنَيْتِهِ، وَظَلَّتِ الْجَمَاهِيرُ طَوَالَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مُتَحَشِدَةً
عَلَى جَوَانِبِ الطَّرِيقَاتِ، لِتَحِيَّةِ الْمَوْكِبِ عِنْدَ مُرُورِهِ
فِيهَا، وَعِنْدَ الْمَسَاءِ حَضَرَ الضُّيُوفُ الْوَافِدُونَ إِلَى مَسْرَحِ
شِيكْسْبِيرِ التَّذْكَارِيِّ، لِيَشْهَدُوا تَمْثِيلَ إِحْدَى رَوَائِعِهِ
الْمَسْرُوحِيَّةِ، وَأُصْدِرَتِ الدَّوْلَةُ طَابَعًا تَذْكَارِيًّا تَخْلِيدًا
لِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، يَحْمِلُ صُورَةَ شِيكْسْبِيرِ مَعَ مَلِكَةِ
انْجَلْتِرَةِ.

والحقُّ أنَّ الانكليزَ مُنذُ مائةِ عامٍ دائِبُونَ على
الاحتفالِ بشاعرِهِم الخالِدِ، في الثالثِ
والعشرينَ من شَهْرِ نيسانِ في كلِّ عامٍ، يَقومُونَ
بموكبٍ كبيرٍ، يَسيرُ فيه سُفراءُ الدَّولِ، مِن مَسَرَّحِ
شيكسبيرِ في ستراتفورْدَ إلى بيتِهِ، وقد أصبحَ هذا
الموكبُ مَسيرَةً تَقليديَّةً سَنَوِيَّةً، تَخليداً لِعَبقريَّةِ
شيكسبيرِ، وتكرِماً لِذِكرائِهِ الحَيَّةِ في نُفوسِ قُرَّاءِ
أدبِهِ الخالِدِ.

إنَّ مكانَةَ شيكسبيرِ عندَ الانكليزِ لا تَعدِلُها
مكانَةُ، ويقولُ كارْلِيلُ: «تُرى لو سُئِلَ الانكليزُ:
أيُّ الأمرينِ تُفضِّلونَ: أَتَتَخَلَّوْنَ عن امبراطوريَّتكم
في الهِنْدِ، أمْ عن شاعرِكُم شيكسبيرِ؟» وَيُجيبُ
كارْلِيلُ: «سواءُ لَدِينَا أَكانَتْ لَنَا امبراطوريَّةٌ هنديةٌ
أمْ لم تَكُنْ، فَلَنْ يُغْنِيَنَا شَيْءٌ عن شيكسبيرِ!

الباب الخامس

صفحات من روائع شيكسبير الخالدة

نُقَدِّمُ في هذا البابِ صورتَيْنِ مُوجَزَتَيْنِ
لمسرحيَّتَيْنِ من روائع شيكسبير الخالدة، وهما (تاجرُ
البُنْدُقيَّةِ) و (الملكُ لير) وكلُّ أَمَلِنَا أَنْ يَجِدَ فِيهَا
القارئُ العزيزُ ما يُغريه بِمُتَابَعَةِ قِراءَةِ مسرحياتِ
شيكسبير الكثيرة الأخرى، لأنَّ في مؤلفاتِ هذا
الشاعرِ العبقرِيِّ العظيمِ دُنْيَا حافلةً بالإفادَةِ
والإمتاعِ، إذ كان شيكسبيرُ رَجُلًا فَذًّا، يُمَثِّلُ
بِمَوَاهِبِهِ النادرةِ عالِمًا بِأَسْرِهِ، وأدبُهُ الخصبُ مِرآةً
لِلطَّبِيعَةِ والناسِ في عَصْرِهِ، وكانتِ الإدارةُ
الثقافيةُ في جامعةِ الدُّولِ العربيةِ — لِحُسْنِ حَظِّ

القارىء العربى — قد عمّدت إلى ترجمة أعمال
شيكسبير الكاملة، وتولى الترجمة عددٌ من خيرة
الأكفيا من المترجمين، وبذلك أصبحت
مسرّحات شيكسبير في مُتناول يد القارىء العربى،
في لغة سليمة وإخراج أنيق.

ومسرحية (تاجر البندقية) من أشهر مسرحيات
شيكسبير، وكنا قدّمنا أنّه أخرجها حوالى عام
١٥٩٦ م فلقّيت إقبالاً عظيماً، وعدّها النقاد دليلاً
على بلوغ الشاعر الكبير أوج فنّه المسرحي فيها،
ولقي شيكسبير بعد إخراجها من الدولة تشريفاً
وتكريماً واعتِرافاً بموهبته ودوره في ازدهار الفنّ
المسرحي في عصره.

ومسرحية (تاجر البندقية) تُمثّل جشع أحد
المُرابين اليهود في مدينة البندقية بإيطالية، كما

تُصَوِّرُ حَقْدَ هَذَا الْمُرَابِي الْيَهُودِيِّ عَلَى التُّجَّارِ الشُّرَفَاءِ
الَّذِينَ كَانُوا يَمْدُونَ يَدَ الْعَوْنِ إِلَى كُلِّ مَنْ تَدْفَعُهُ
الْحَاجَةُ إِلَى الْاِقْتِرَاضِ مِنَ الْيَهُودِيِّ بِالرَّبَا الْفَاحِشِ،
وَمِنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ الشُّرَفَاءِ كَانَ أَنْطُونِيُو التَّاجِرُ
الْبَنْدَقِيُّ الْوَاسِعُ الثَّرَاءُ، وَالطَّيِّبُ الْقَلْبُ، وَالَّذِي كَانَ
يَحُولُ دُونَ أَطْمَاعِ الْمُرَابِي الْيَهُودِيِّ (شَائِلُوكَ) بِإِنْقَازِ
كُلِّ فَرِيْسَةٍ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ، بِتَقْدِيمِ الْقُرُوضِ دُونَ
رَبَا إِلَيْهَا، مِمَّا يَزِيدُ فِي سُخْطِ (شَائِلُوكَ) وَحَقْدِهِ عَلَى
أَنْطُونِيُو، وَيَجْعَلُهُ يَتَرَبَّصُّ بِهِ الْفُرْصَ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُ.

وَأَخِيرًا جَاءَتِ الْفُرْصَةُ الْمُنَاسِبَةُ لِلانْتِقَامِ،
فَكَشَفَ الْمُرَابِي الْيَهُودِيُّ الْحَاقِدُ عَنْ كُلِّ مَا فِي نَفْسِهِ
مِنْ ضِعَائِنَ عَلَى أَنْطُونِيُو، وَالْقِصَّةُ هُنَا بِحَاجَةٍ إِلَى
مَزِيدٍ مِنَ الشَّرْحِ وَالتَّفْصِيلِ: فَقَدْ كَانَ لِأَنْطُونِيُو فِي
الْبُنْدَقِيَةِ صَدِيقٌ يُحِبُّهُ وَيُؤَثِّرُهُ، هُوَ (بَاسَانِيُو)، وَكَانَ

كل من الصديقين يُخْلِصُ للآخر إخلاصاً لا حَدَّ
له، حتى ضُربَ المثلُ بما بينهما من إخاء ووفاء، وقد
كانَ (باسانيو) شاباً نبيلاً نشأ في أسرة غنية
مُجيدة، ولكنه أنفقَ كُلَّ ثروته في مُساعدة
المُحتاجين والبائسين، وعندما أَحَبَّ (بُورُشِيا)
الوارثة المُشرية المُقيمة في (بِلْمُونْت) وفازَ بِخُطْبَتِها
ورضاها وحبّها، لم يجد في يده من المال ما يُعينه
على الإنفاق، فالتجأ إلى صديقه (انطونيو) التاجر
الموسر، الذي كانت سُفُنُ تجارته تذرُعُ البحارِ
وتحملُ إليه الأرباحَ من موانئ العالم، ولم يكن
انطونيو لِيَبْخَلَ على صديقه (باسانيو) بما يَطْلُبُ،
ولكنَّ ثروته كلها كانت يومذاك في مراكبه التجارية
التي يَنْتَظِرُ عَوْدَتَها إلى البُنْدُقيَّة، غيرَ أنَّ حاجة
(باسانيو) لم تكن لِتَحْتَمِلَ التريث والتأجيل، فعمدَ

أنطونيو إلى الاستدانة لِيَحْصَلَ على ما يُريدُ صديقُه
من مالٍ، ولم يكنْ أَمَامَ الصديقين بُدٌّ من اللُّجُوءِ
إلى الشيخ اليهوديِّ المُرَابي (شَايْلُوك) للاقتراضِ
منه، وهما اللذان كانا يَكْرَهُانِ هذا الرجلَ الشريرَ
البخيلَ وَيَمْتَقُتَانِيهِ، ولا يذكُرَانِ اسمَهُ إلا بِاللَّعْنَةِ
والاحتقارِ!

ولكن حاجةً (باسانيو) إلى المالِ الآنَ قاهرةٌ،
والأبوابُ مسدودةٌ في وَجْهِهِ، وقد تَلَقَّى الشيخُ
المُرَابي طَلَبَ (باسانيو) باقتراضِ ثلاثةِ آلافِ دُوقِيَّةٍ
(عُمْلَةٌ دُوقِ البُنْدُقيَّةِ) بابتسامةٍ مَكرَةٍ، وسأله
كيفَ يَقْدِرُ على سَدَادِ هذا القرضِ، فأجابَهُ:

— إِنَّ صَدِيقِي أنطونيو يَكْفُلُ القَرْضَ، وهو
يَتَعَهَّدُ لكَ بِرَدِّهِ قَبْلَ أَنْ تَنْقُضِيَ أَشْهُرَ ثَلَاثَةٍ!

وعندما حضر أنطونيو إلى بيت (شَايْلُوك) قال له

الشيخ اليهودي الماكر:

— إني مُستعدُّ لِتَسْلِيْفِكَ المَالَ بلا رِبْحٍ، ولكِنِّي
أَحِبُّ أَنْ أَشْطَرَّ شَرْطاً، مِنْ قَبِيلِ المُدَاعِبَةِ
والمُزَاجِ، وَلَنْ تَرَفُضَهُ مَا دُمْتُ مُوقِناً بِقُدْرَتِكَ عَلَى
الْوَفَاءِ بِالدِّينِ فِي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ!

وأجاب أنطونيو دُونَ تَرَدُّدٍ:

— اشْتَرِطْ مَا تُرِيدُ، فَأَنَا وَاثِقٌ كُلُّ الثَّقةِ مِنْ
قُدْرَتِي عَلَى الوَفَاءِ بِالدِّينِ قَبْلَ انْقِضَاءِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ!
وقال (شَائِلُوكُ) عِنْدَ ذَلِكَ:

— إني أَشْتَرِطُ أَنْ تُعْطِيَنِي رِطْلاً مِنْ لَحْمِكَ،
إِذَا تَأَخَّرْتُ عَنْ سَدِّ الدِّينِ فِي الوَقْتِ المُحَدَّدِ!
ودُهَشَ الصَّدِيقَانِ لِهَذَا الشَّرْطِ العَجِيبِ، وَعَجِبَا مِنْ
رَغْبَةِ الشيخ اليهوديِّ فِي مِثْلِ هَذَا المُزَاجِ، وَأَعْلَنَ

(باسانيو) رَفُضَهُ، ولكن (أنطونيو) حسم الأمر
بتوقيع الصك، وأعلن لصديقه أن شفته ستعود إلى
البندقية قبل أن ينقضي شهران، وابتهج (شائلوك)
مُعِلِّناً أنه لم يقصد إلا الدُّعابة البريئة والتسلية
الخالصة، وأنه عمَدَ إلى تقديم القرض إلى الصديقين
بلا ربا، ليفوز بحبهما ويستميل قلوبهما إليه!!

وهكذا وَقَعَ (أنطونيو) عَقْدَ الدَّيْنِ، ولم يُقَدَّرْ
عواقب موافقته تقديرًا صحيحًا! وحمل (باسانيو)
المال لِيُسَافَرَ إلى (بِلْمُونْت) وخطيبته الحسناء
(بُورُشيا) وكانت فتاة ثرية نبيلة يتهافت الخطاب
على طلب يديها، ولكنهم لم يفوزوا بها، وفاز
(باسانيو) إذ ساعده الحظ بذلك، ولا حاجة إلى
تفصيل كيف تم له ذلك، في هذا الموجز السريع.

ومرَّتْ أشهرٌ ثلاثة عندما قدِمَ من البندقية على

(بأسانيو) صديقٌ يحملُ أنباءَ مُزعجةً، فقد غرقت
جميعُ السفنِ والمراكبِ التي تحملُ تجارةَ أنطونيو،
وأصبحَ التاجرُ البُنْدُقيُّ الواسعُ الثراءِ لا يملكُ شيئاً،
واستحالَ عليه أن يفيَ بما عليه من دينٍ لليهوديِّ
المُرابي (شائلوك)، وأصرَّ الشيخُ الماكرُ على الانتقامِ
من عدوِّه اللدود، بِمُطالبتِه بِرِطْلٍ من لَحْمِه!
وعندما سَمِعَ (بأسانيو) هذه الأخبارَ أصابهُ الهَلَعُ،
وهذه الألمُ، وَعَلِمَتْ بورشيا بالأمرِ، فأبَدَتْ
استعدادَها لِذَفْعِ أضعافِ المَبْلَغِ إلى اليهوديِّ الحاقِدِ،
وأرسلتْ بأسانيو دُونَ تَرِيثٍ لِيَعْمَلَ على انقاذِ صديقه
الوَفِيِّ الصَّدُوقِ.

وفي قاعةِ المحكمةِ لم تُجِدِ جميعُ الوسائلِ
لاستعطافِ الشَّيْخِ اليهوديِّ، وقد أصرَّ على تَنْفِيذِ ما
اشترَطَ، انتقاماً من التاجرِ المنكُوبِ بشروته، وإرضاءً

لِحَقْدِهِ الْأَسْوَدِ عَلَيْهِ .

وَنُقَدِّمُ هُنَا إِلَى الْقَارِئِ الْعَزِيزِ مَشْهُدًا مِنْ قَاعَةِ
الْمَحْكَمَةِ، كَمَا يُقَدِّمُهُ شِيكْسْبِيرُ، وَشَخْصِيَّاتُ
الْمَشْهُدِ: الدُّوقُ حَاكِمُ الْبُنْدُوقِيَّةِ، وَأَنْطُونِيو،
وَشَائِلُوكُ، وَبَاسْتَانِيو، مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَغْيَانِ الَّذِينَ
حَاضَرُوا الْمُحَاكَمَةَ.

المشهد: البُنْدِيقَةُ: قَاعَةُ المحْكَمَةِ

الدوق: أنطونيو هُنا؟

أنطونيو: إني رهْنُ إشارةِ سُموّكم.

الدوق: إني آسَفُ لِمَا أَصَابَكَ، وإِنَّكَ لَتُواجِهُ خَضَمًا

قَدْ قلبَهُ من الصَّخْر، مُجَرِّدًا من الأنسانية،

فاقِدَ الاحساسِ بالشفقة، ليستَ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ

من العَطْفِ والرَّحْمَةِ!

أنطونيو: لقد سمعتُ أن سُموّكم قد بذَلْتُم جُهدًا

عظيمًا لِتُخَفِّفُوا من شِدَّةِ مَطالِبِهِ، ولكِنَّه

اتَّخَذَ موقِفَ العِنادِ، ولَمَّا كانتِ مَوادُّ

القانون لا تُجِني من براثنِ حِقْدِهِ،
فإني أواجه حِدَّةَ غَضَبِهِ صابِراً هادِئاً
لِتحَمْلِ قسوةِ حِقْدِهِ وَضَعْفِيَّتِهِ.

الدوق: لِيَتَوَجَّهْ من يَدْعُو اليهوديَّ لِلْمُثُولِ أمامَ
المحكمةِ [يدخلُ شائِلوكُ].

الدوق: أَفْسِحُوا له الطريقَ، ودَعُوهُ يَقِفْ في
مُواجهَتِنَا، إنَّ الناسَ كُلَّهُم يَظُنُّونَ يا
شائِلوكُ، وأنا معهم في ذلك، أنَّ كُلَّ ما
تُريده هو أن تَمُضِيَ في هذا الضَّرْبِ من
الحِقْدِ البَغِيضِ حتى آخِرِ الشَّوْطِ، وهم
يَظُنُّونَ أنك حينذاك ستُظهِرُ شَفَقَتَكَ
ورحمتَكَ على نَحْوِ أعْجَبَ مِمَّا تَتَظَاهَرُ به
من القَسْوَةِ العَجِيبَةِ، ويقولون إنَّكَ لن تنزاعَ
فقط عن الجزاءِ الذي تَوَدُّ توقيعه باقتطاع

رَطَلٍ مِنْ لَحْمٍ هَذَا التَّاجِرِ الْبَائِسِ ، بَلْ
إِنَّكَ سَتَأْخُذُكَ الرَّحْمَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْعَطْفُ
وَتُلْقِي عَلَيْهِ نَظْرَةً لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْخَسَائِرِ
الْأَخِيرَةِ الْفَادِحَةِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَاهِلَهُ ،
فَتُعْفِيهِ مِنْ بَعْضِ الْمَالِ ، وَهُوَ دَيْنٌ لَوْ أَصِيبَ
بِهِ أَعْظَمُ التُّجَّارِ لِأَفْلَسَ وَاسْتَدَّرَ الْعَطْفُ
مِنْ كُلِّ الْقُلُوبِ ، وَإِنْ قُدَّتْ مِنَ النُّحَاسِ
أَوْ الصَّخْرِ الْأَصَمِّ ! إِنَّهُ لَخَطْبٌ يُؤَثِّرُ فِي
أَقْسَى النُّفُوسِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تَأَلَّفَ الرِّقَّةَ فِي
الْمُعَامَلَةِ ، وَإِنَّا جَمِيعًا لَنَرُقُبُ جَوَابًا رَقِيقًا
مِنْكَ أَيُّهَا الْيَهُودِيُّ !

شَائِلُوكُ : لَقَدْ صَارَ حَتُّ سُمُوكُمْ بِمَا أَهْدِفُ إِلَيْهِ ،
وَلَقَدْ أَقْسَمْتُ بِسَبِيَّتِنَا الْمُقَدَّسِ أَنْ آخُذَ مَالِي
مِنْ حَقِّ لِمُضِيِّ الْوَفَاءِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّكِّ ،

فَإِذَا أَنْكَرْتُمْ هَذَا فَلْتَقَعْ مُخَالَفَتُكُمْ أَنْظِمَةً
مَدِينَتِكُمْ وَحُرِّيَّاتِهَا عَلَى كَوَاهِلِكُمْ ، وَلَسَوْفَ
تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْضَلُ الظَّفَرِ بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ
الْمَاسِدِ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ دُوقِيَّةٍ ، وَلَكِنِّي
لَنْ أَجِيبَكَ عَنْ . . . السُّؤَالِ ، وَلَكِنْ ، لِنَقُلْ
إِنَّ هَذَا هُوَ مِزَاجِي الْخَاصُّ : فَهَلِ اسْتَطَعْتُ
أَنْ أَجِيبَكَ ؟ وَمَاذَا فِي الْأَمْرِ إِذَا كَانَ هُنَاكَ
فَأَرْيَعِيْتُ فِي بَيْتِي فَسَاداً وَيُضَايِقُنِي ، وَكَانَ
يَسْرُنِي أَنْ أُوَدِّيَ عَشْرَةَ آلَافِ دُوقِيَّةٍ
لِاصْطِيَادِهِ ؟ أَتَرْضَوْنَ هَذَا جَوَاباً ؟ إِنَّ مِنْ
النَّاسِ مَنْ يَمُقُّونَ رُؤْيَا خِنْزِيرٍ مَشْوِيٍّ فَاعْرِ
فَاهُ ، وَآخَرِينَ يُجَنُّونَ جُنُوناً إِذَا شَاهَدُوا
قِطْعاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ مَنَعَ نَفْسِهِ مِنَ
التَّبَوُّلِ إِذَا أَضْغَى لِنَعْمَةٍ مِزْمَارٍ ، ذَلِكَ أَنَّ

عواطفنا تُسَيِّطِرُ سَيِّطَرَةً كَامِلَةً عَلَى مَا نُحِبُّ
وَمَا نَكْرَهُ، وَالْآنَ لِأَجِبْ عَنْ سُؤَالِكَ : كَمَا
أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ سَبَبٌ قَوِيٌّ يُوضِّحُ السَّرَّ فِي
كَرَاهِيَّةِ هَذَا الشَّخْصِ لِخِثْرٍ فَاغِرٍ فَاهٍ، أَوْ
ذَلِكَ لِلْقَطْعِ الْعَدِيمِ الْأَذَى الَّذِي لَا بُدَّ مِنْ
وُجُودِهِ فِي الْمَنْزِلِ، وَلَا يُطِيقُ ثَالِثُ هَذَا
الْمَزْمَارَ، فَكَذَلِكَ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذْلِي
بِسَبَبٍ، وَلَنْ أَذْلِي بِسَبَبٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنِّي
أَضْمِرُ الْبُغْضَ لِأَنْطُونِيو وَأَحْقِدُ عَلَيْهِ أَشَدَّ
الْحِقْدِ، وَهَذَا أَمْضِي فِي قَضِيَّةٍ خَاسِرَةٍ
ضِدَّهِ، أَفَيُقْنِعُكُمْ هَذَا الْجَوَابُ؟

بِاسْتَانِيو: لَيْسَ هَذَا جَوَاباً أَيُّهَا الرَّجُلُ الْعَدِيمُ
الْمَشَاعِرِ يُسَوِّغُ قَسْوَتَكَ الَّتِي نَرَاهَا!
شَايْلوك: لَسْتُ مُلْزَماً بِأَنْ تُعْجِبَكَ إِجَابَاتِي!

باسانيو: أفَيَقْتُلُ الناسُ كُلَّ ما يكرهون؟
شايلوك: أَيْكُرُّه الإنسانُ ما لا يَرْغَبُ في قَتْلِهِ؟
باسانيو: ليسَ ضَرُورياً أنْ تُؤدِّيَ كُلُّ إِساءَةٍ إلى
الكرَاهِيَةِ.

شايلوك: ماذا تقول؟ أَفَتَسْمَحُ لِثُعْبَانٍ بأنْ يَلْدَغَكَ
مَرَّتَيْنِ؟

أنطونيو: أرجوك أن تَتَذَكَّرَ أَنَّكَ تُناقِشُ اليهوديَّ: إنه
لَأَسْهَلُ عَلَيْكَ أن تَسْأَلَ الذئبَ لِمَ أَبْكَى
النَّعْجَةَ بافْتِرَاسِ صَغِيرِهَا من أنْ يَكُونَ في
وُسْعِكَ أن تُلَيِّنَ قَلْبَ اليهوديِّ الذي لا نَظِيرَ
له في قَسْوَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ فَرجائي إِلَيْكَ أَلَا
تَعْرِضُ عَلَيْهِ شَيْئاً بَعْدُ، وكفاكَ جُهداً في
هذا السبيلِ، ولكنْ عَجَّلُوا بإعلان القانونِ
كما يَتَرَاءى لَكُمْ، واحكمُوا في قَضِيَّتِي،

وليظفر اليهودي بِمَرامِهِ .

باسانيو: هذه ستة آلاف ذوقية خُذْها مُقابلَ ألفِكَ
الثلاثة !

شايْلوك: لو أَنَّ كُلَّ ذوقيةٍ من هذه الآلاف الستة
قُسِّمَتْ سِتَّةَ أَقسامٍ، وصارَ كُلُّ قسمٍ منها
ذوقيةً لما رَضِيتُ بِذلك مَغْنَمًا: لَسْتُ أَبْغِي
غَيْرَ تَنْفِيذِ شَرْطِ الوثِيقَةِ !

الدُّوق: كيفَ تَرْجُو مَرْحَمَةً وَأَنْتَ لَا تُظْهِرُ شَيْئًا
مِنْهَا؟

شايْلوك: وَأَيُّ حُكْمٍ أَخْشَاهُ مَا دُمْتُ لَا أَظْلِمُ
أَحَدًا؟ إِنْ رِطَلَ اللَّحْمِ الَّذِي أَطَالِبُ بِهِ قَدْ
اشْتَرَيْتُهُ بِثَمَنِ غَالٍ ! إِنَّهُ حَقِّي وَسَأْنَالُهُ،
فَإِذَا أَبَيْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَ فَسِيلْحَقُ الْعَارُ
بِقَضَائِكُمْ، وَلَنْ يُصْبِحَ لِقَوَانِينِ البُنْدُقيَةِ أَيُّ

أثر فقال ! إني أقف مُطالباً بحُكمِكُم،
فأجيبُوني، هل أظفرُ به؟

الدوق: إنَّ من حَقِّي أن أقِف هذه المحكِّمة بما لي من
سُلطان، ما لَمْ يَفِدِ العالمُ الضليعُ
(بيلاريو) الذي أرسلتُ في طلبه اليومَ
للوُقوفِ على رأيه في حَسَمِ هذه القضية!

وعندَ ذاكَ يَصِلُ إلى قاعةِ المحكِّمةِ رسولٌ من
مَدِينَةِ (بَادُوفَا) مِنْ عِنْدِ العَلَامَةِ (بيلاريو) يُوصي أنْ
تَأْخُذَ المحكِّمةُ برأيِ عالمٍ شابٍّ، يَدْخُلُ إلى القاعةِ،
وهو في الحَقِيقَةِ (بُورَشِيَا) خَطِيبَةٌ (بَاسَانِيُو) مُتَنَكِّرَةٌ،
ويأْخُذُ الشابُّ القادِمُ أولَ الأمرِ جانبَ شايِلُوكَ
وحَقَّهُ في طَلَبِهِ، فِيرتَاحُ الشَّيْخُ اليَهُودِيُّ إِلَيْهِ، وَيُعْلِنُ
إِصرارَهُ على اقْتِطَاعِ رِطْلِ اللَّحْمِ، وَلَوْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ
البُنْدَقِيَّةُ كُلُّهَا مُقَابِلَ ذَلِكَ لَمَا رَضِيَ، وَيَسْتَسْلِمُ

أنطونيو ويتوسّل إلى المحكمة أن تُصدِرَ حُكْمَهَا عَلَيْهِ،
ويكشفُ عن صَدْرِهِ، ويسألُ العالمُ الشابُّ
شائلوك:

— من حقّك الحصولُ على رطلٍ من لحم هذا
التاجر وإنَّ المحكمةَ لتحكُمُ لكَ بذلكَ، والقانونُ
يؤيِّدُكَ! ولكنَّ الصكَّ لا يُبيحُ لكَ الحقَّ في
قَطْرَةٍ واحدةٍ منَ الدِّماءِ! خُذْ نصيبَكَ من
اللَّحْمِ، ولكنَّكَ إذا أَرَقْتَ وأنتَ تَقْطَعُهُ قَطْرَةً واحدةً
منَ دَمِ مَسِيحِيٍّ، صُودِرَ عَقَارُكَ وبضائعُكَ لِدَوْلَةِ
البُنْدِيقَةِ تطبيقاً لِقَوَانِينِهَا!

وهنا يَتَرَجَعُ شائلوكُ عن طَلَبِهِ،
ويرضى^١ بأنَّ يَتَّقَاضِيَ ثلاثةُ أمْثَالِ المَبْلَغِ، كما عَرَضَ
بِاسَانِيو من قَبْلُ عَلَيْهِ، ولكنَّ العالمَ الشابَّ يَتَدَخَلُ،
ويرفضُ أنْ تَرْضَى المحكمةُ بذلكَ، ويدعو شائلوكُ إلى

اَفْطَاعِ رِطْلٍ، لَا يَزِيدُ فِي الْوَزْنِ حَبَةً عَنِ
الرَّطْلِ، مِنْ لَحْمِ أَنْطُونِيو، دُونَ أَنْ يُرِيقَ قَطْرَةً مِنْ
دَمِهِ، وَإِلَّا كَانَ مَصِيرُ شَايْلُوكَ الْمَوْتُ، وَصُودِرَتْ
جَمِيعُ مُمْتَلَكَاتِهِ!

وهكذا يتنازلُ اُنْشِيخُ الْيَهُودِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ، وَتَنْتَهِيَ الْمَسْرَحِيَّةُ بِإِنْقَاذِ أَنْطُونِيو مِنْ
وَرُطْيَتِهِ، وَاِكْتِشَافِ بَاسَّانِيوِ شَخْصِيَّةِ الْعَالِمِ الشَّابِّ
الذَّكِيِّ الَّذِي أَنْقَذَ حَيَاةَ أَنْطُونِيو، دُونَ أَنْ يُخَالِفَ
قَوَانِينَ الْبُنْدُقِيَّةِ، وَأَلْحَقَ الْهَزِيمَةَ وَالْجَزَاءَ بِالشَّيْخِ
الْيَهُودِيِّ الْمُرَابِي، الَّذِي خَرَجَ مِنْ قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ، وَهُوَ
يَجْرُ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالنَّدَامَةِ.

وتنتهي المسرّحيةُ بِمُفَاجِئَةٍ سَاوَّةٍ أُخْرَى، فَقَدْ
تَمَكَّنَتْ ثَلَاثُ سُفُنٍ مِنْ مَرَاكِبِ أَنْطُونِيو التِّجَارِيَّةِ مِنْ
النَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ وَوَصَلَتْ سَالِمَةً بِمَا تَحْمِلُ إِلَى مِينَاءِ
الْبُنْدُقِيَّةِ.

تُعَدُّ مسرحيةُ (الملك ليِر) من أشهرِ مآسي
شيكسبير، وهي من إنتاج المرحلةِ الثالثةِ من حياتهِ
الفنيةِ، أخرجها حوالي ١٦٠٥-١٦٠٦ م، وأكثرُ
مسرحياتِ هذهِ المَرحَلَةِ من المآسي التي صَوَّرَ فيها
الشاعرُ ما تُخَلِّفُهُ الجرائمُ والخطايا في نفوسِ مُرتكبيها
من عَذَابٍ أليمٍ وشقاءٍ مُقيمٍ، كما صَوَّرَ فيها رُوحَ
الانتقامِ التي يحملُها كلُّ إنسانٍ في جَوانِحِهِ.

وترجعُ بنا مأساةُ الملكِ ليِر إلى الماضي البعيدِ،
مُنذُ ألفي عامٍ، ففي شمالِ بلادِ الانكليزِ كانَ
يومَذاك مَلِكٌ طيِّبُ القلبِ، أحَبُّهُ شَعْبُهُ لأنَّه كانَ
حاكِماً عادِلاً، وقد شاخَ هذا المَلِكُ دُونَ أن يُرْزَقَ

وَلَدًا يَخْلُفُهُ عَلَى عَرْشِهِ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُقَسِّمَ مُلْكَهُ
بَيْنَ بَنَاتِهِ الثَّلَاثِ، لِتُزِيحَ عَنْ كَاهِلِهِ أَعْيَاءُ
الْحُكْمِ، وَيَثْرَكَ لِبَنَاتِهِ وَأَزْوَاجِهِنَّ مَسْئُولِيَّةُ الْيَحْفَازِ
عَلَى أَرْضِ مَمْلَكَتِهِ وَشَعْبِهِ، وَيَرْتَاحَ فِي شَيْخُوخَتِهِ
وَيَقْضِيَ أَيَّامَهُ الْأَخِيرَةَ فِي دَعَاةٍ وَأَمْنٍ وَسَلَامٍ، مُسْتَرِيحَ
الْقَلْبِ نَاعِمَ الْبَالِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الثَّمَانِينَ، وَجَلَّلَ
الشَّيْخُ رَأْسَهُ.

وَأَقَامَ الْمَلِكُ لِرُحْتِفَالِهِ عَظِيمًا فِي قَصْرِهِ الْكَبِيرِ
لَكِي يُغْلِنَ تَقْسِيمَ مَمْلَكَتِهِ بَيْنَ بَنَاتِهِ، وَيُحَدِّدَ حِصَّةَ
كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، وَكَانَتْ بِنْتَاهُ الْكُبْرَيَانِ قَدْ زُوجَتَا
مِنْ أَمِيرَيْنِ، أَمَّا الْبِنْتُ الصُّغْرَى — وَاسْمُهَا
كُودِلِيَا — فَقَدْ جَاءَ مَلِكُ فَرَنْسَا وَوَاحِدٌ مِنْ أَمْرَاءِ
انْكَلْتِرَا، وَنَزَلَا ضَيْفَيْنِ عَلَى الْمَلِكِ لِيَرَا، وَكَانَ كُلُّ
مِنْهُمَا رَاغِبًا فِي الزَّوَاجِ مِنْ صُغْرَى بَنَاتِهِ تِلْكَ، وَقَدْ

استدعى الملك الشيخ بناته الثلاث وقال لهنَّ .

— إني أودُّ أيتها العزيزاتُ أن أقسمَ مُلكي
بينكنَّ، لكنِّي أحبُّ أن أعرفَ قبلَ ذلكَ مدى
حُبِّكنَّ لي، بأن تُجيبَ كُلُّ واحدةٍ منكنَّ عن سؤالٍ
أوجَّههُ إليها على انفرادٍ !

وخلا الملكُ بابنته الكبرى (جُثريل) وكانت
فتاهُ خبيثة الطويَّة، مُشرقةً في الأنانيَّة، ولم تكنْ
تُضمِرُ لأبيها شيئاً من الحُبِّ، ولكنها كانت تتودَّدُ
إليه وتتملَّقه، طمعاً في ميراثه، فلما سألتها عن
مقدارِ حُبِّها إياه، قالت وهي تتظاهر بالحنانِ : أنتِ
أعزُّ عليَّ من سوادِ عيني، وإني لأفديكَ بنفسِي،
وأضحِّي في سبيلِكَ بدمي، وأدعو اللهَ أن يحفظَكَ
سليماً من كُلِّ سوءٍ !

وخدعَ الملكُ ليرُ بثناءِ ابنته الكبرى، وسرَّ أعظمَ

السُّرُورِ بما قاله ، وأعلن أنه يَمْنَحُهَا ثَلَاثَ مَمْلَكِيَةٍ
الكَبِيرَةِ.

وأما البنتُ الثَّانِيَةُ (رِيحَان) وهي الوُسْطَى ،
فقد أَجَابَتْ أَبَاهَا عَلَى سُؤَالِهِ ، وَكَانَتْ أَخْبَتْ مِنْ
أَخْتِهَا وَأَكْثَرَ لُؤْمًا وَطَمَعًا ، بِقَوْلِهَا : إِنِّي أَحْبُّكَ يَا
أَبَتَاهُ قَدْرَ مَا تُحِبُّكَ أَخْتِي جُزَيْرِلُ إِنَّ لَمْ أَرِدْ عَلَيْهَا ،
وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْ حُبِّكَ ،
أَوْ يَجْعَلَنِي أَغْفُلُ عَنْ التَّفَكِيرِ فِيكَ لِحِظَةً وَاحِدَةً !

وَفَرَحَ الْمَلِكُ لِيرُ بِجَوَابِ ابْنَتِهِ الْوُسْطَى ، وَامْتَلَأَ
زَهْوًا وَإِعْجَابًا بِشَتَائِهَا ، وَأَعْلَنَ لَهَا أَنَّهُ يَمْنَحُهَا ثَلَاثَ
مُلْكِيَةٍ ، لِأَنَّهَا جَذِيرَةٌ بِحُبِّ أَبِيهَا وَمَكَافَأَتِهِ لَهَا .

وَجَاءَ دَوْرُ الصُّغْرَى (كَرْدَلِيَا) وَكَانَتْ فَتَاةً
طَاهِرَةً الْقَلْبِ ، نَقِيَّةَ النَّفْسِ ، مُخْلِصَةً حَقًّا فِي حُبِّ
أَبِيهَا ، وَلَمْ تَكُنْهَا لَا تَمِيلُ إِلَى الْغُلُوِّ وَلَا تَعْرِفُ الْكَذِبَ ،

أجابَتْ أباها عن سُؤاله بِقَوْلِها: إِنني أَحِبُّكَ يا أباي
كما تُحِبُّ كُلُّ فَتاةٍ والدَّها!

واستاء الملكُ ليرُ من جَوابِ ابنتِه الصُّغرى،
وكان يَنتظرُ أن يَسمعَ منها آياتِ المَديحِ والثناءِ،
كما سَمِعَ من أُختيَّها المُرَائيَتينِ، وَعَدَّ قولَها عُقوقاً،
وَرَكِبَهُ الغَضَبُ فَطَرَدَها من مَجلِسِه، ولم يُدِرْكَ أنَّ
إِخلاصَها لَه هو الَّذي دَفَعَها إلى ذَلكَ الجَوابِ،
لِكِلا تَبْذُورَ مُتَمَلِّقَةً مُرائِيَّةً عَندَ تَقْسيمِ أبيها لِمُلْكِهِ
بَينَها وبَينِ أُختيَّها، وخرَجتِ الفتاةُ الأَبْيَةُ مَحْرومَةً
من كُلِّ إرْثٍ، وأعطى الملكُ المَخدوعُ نَصيبَها إلى
أُختيَّها إرْثَ ذَلكَ!

وعَندما تَبَيَّنَ لِلأَميرِ الأَنكليزِيِّ الَّذي كانَ
يَخطُبُ كُردِلياً أَنها لَن تَفُوزَ من إرْثِ أبيها ومُلْكِهِ
بِشَيءٍ تَخَلَّى عَن طَلَبِ يَدِها، فَتَزوجَتِ الحَطيِّبَ

الثاني، ملكَ فرنسة، وحملها إلى بلاده، وقد أصرَّ
الملكُ ليرُ على ألا يراها في قصره ثانية!

كانَ ملكُ فرنسة كبيرَ الإعجابِ بصراحةِ
كُردليا وعِزَّةِ نفسِها وإبائها، ورَفِضِها أنْ تَبْدُو بمظهرِ
المُتَمَلِّقَةِ لأبيها لِتنالَ منه نَصيبَها من ميراثه، وقبلَ
أنْ تُغادرَ كُردليا انكلترةَ مع زَوجها إلى بلاده
حاولتْ أنْ تُودِّعَ أُختَيها الوداعَ الأخيرَ، فلقِيتْ منها
كُلَّ جَفاءٍ وخُشُونَةٍ، وقالَ الملكُ ليرُ لِزوجها: اذْهَبْ
بها إلى حَيْثُ تُريدُ، فما أَطيقُ رُؤيةَ وَجْهِها بعدَ
اليومِ!

وكذلكَ تَمَّ إعلانُ تقسيمِ المملكةِ بينَ
الأختينِ الكُبْرَيَيْنِ، وتَخَلَّى الملكُ ليرُ عن مُلكِهِ
جميعه، ولمْ يَثْرُكْ لِنَفْسِهِ غيرَ لَقَبِ (المَلِكِ) ولمْ
يَحْتَفِظْ بغيرِ مائةِ فارسٍ، ليَكُونوا حاشِيَتَهُ، وأَعْلَنَ أَنه

سَيَنْزِلُ ضَيْفًا عَلَى إِحْدَى ابْنَتَيْهِ فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ
يَنْتَقِلُ إِلَى ضِيَاةِ الْبِنْتِ الثَّانِيَةِ فِي الشَّهْرِ الثَّانِي ،
وَهَكَذَا سَيَقْضِي مَا تَبَقَّى مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ فِي ضِيَاةِ
ابْنَتَيْهِ الْعَزِيزَتَيْنِ الْبَارَتَيْنِ ! وَكَانَ لِلْمَلِكِ لِيرٌ وَزِيرٌ
حَكِيمٌ عَاقِلٌ اسْمُهُ (كَنْت) فَحَاوَلَ أَنْ يُصَارِحَ الْمَلِكَ
بِخَطِيئِهِ ، فَلَمْ يَلْقَ مِنْهُ أَدْنَى مُصْغِيَةٍ ، وَغَضِبَ الْمَلِكُ عَلَى
وَزِيرِهِ وَطَرَدَهُ ، وَأَمَرَ بِتَفْيِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَتَوَعَّدَهُ
بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَرْحَلْ عَنْهَا !

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ الْمَلِكُ لِيرُ تَوْزِيعَ مَمْلَكَتِهِ وَإِثْرِهِ بَدَأَ
يَعِيشُ حَيَاتَهُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَرَادَهُ : فَذَهَبَ إِلَى
قَصْرِ ابْنَتِهِ الْكُبْرَى (جُنْرِيل) لِيَقْضِيَ الشَّهْرَ
الْأَوَّلَ فِي ضِيَاةِهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَ حَقِيقَةَ
ابْنَتِهِ الَّتِي كَانَتْ الرِّيَاءَ وَالنَّفَاقَ يَسْتُرَانِيهَا عَنْ نَاضِرِيهِ ،
ذَلِكَ أَنَّ جُنْرِيلَ بَعْدَ فَوْزِهَا بِمَا كَانَتْ تَطْمَعُ فِيهِ مِنْ

مال وسُلطان، وبعد أن استقرَّ لها الملكُ لم تَحْرُصْ
على إخفاء لُؤمِها وعُقوقِها، وأصبحت تَجِدُ في أبيها
وحاشيته الكبيرة عالةً عليها، وعَبَاءً على خَزِينَتِها،
واستكثرت على الملكِ الشيخَ رجلاً حاشيته المِائة،
فراحت تَتَجَهَّمُ لَهُ، وأصبحت تُماطِلُ في تلبيةِ
رَغَبَاتِهِ، وتَسْتَقِيلُ ما يُنْفِقُ على حاشيته من الفُرسانِ
وُخُولِهِمْ، واقتدى خَدَمُها بها فأصبَحُوا يُعَامِلُونَ الملكَ
الشيخَ بِقِلَّةِ الاكتراثِ، ولا يُلبُّونَ لَهُ طَلَباً، وكانَ
الوزيرُ الناصحُ الأمينُ الذي طرَدَهُ الملكُ ليرُ قد
انضمَّ إلى خَدَمِ الملكِ مُتَنَكِّراً، لِيَظَلَّ إلى جانبِ
مَوْلَاهُ، يَحْرُسُهُ وَيَرَعَاهُ، حُباً وإخلاصاً وَوَفاءً، وقد
شَهِدَ الوزيرُ المُتَنَكِّرُ يوماً اسْتِهْتارَ واحدٍ من خَدَمِ
جُنَزيلِ المَلِكِ الشيخِ، وهو يُجَادِلُهُ بِوَقاحَةٍ واحتقارٍ،
فَنَارَتْ نائِرَةُ الوزيرِ الوَفِيِّ، وَصَفَعَ الخادِمَ صَفْعَةً

أَدَمَتْ قَفَاهُ، جَزَاءً عَلَى تَطَاوُلِهِ وَسَفَاهَتِهِ، فَابْتَهَجَ
الْمَلِكُ لِيرُ لِتَأْدِيبِ الْخَادِمِ الْوَقِيعِ، وَسُرَّ لِإِخْلَاصِ
خَادِمِهِ الْجَدِيدِ، غَيْرَ أَنَّ ابْنَتَهُ جُزَيْلَ أَفْلَحَتْ فِي
إِقْنَاعِهِ بِأَنْ يَكْتَفِيَ بَعِثَرِينَ فَارِسًا لِجِرَاسَتِهِ، فَحَيَاتُهُ
آمِنَةٌ وَغَيْرُ مُهَدَّدَةٍ، وَالْحَاشِيَةُ الْكَبِيرَةُ نَفَقَاتُهَا ثَقِيلَةٌ
عَلَى ابْنَتِهِ دُونَ فَائِدَةٍ مِنْهَا !

ثُمَّ عَزَمَ الْمَلِكُ لِيرُ عَلَى الْإِنْتِقَالِ إِلَى ضِيَافَةِ
ابْنَتِهِ الثَّانِيَةِ (رِيحَانٍ) وَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ يَجِدَ عِنْدَهَا مِنْ
الْإِيثَارِ وَالْوَفَاءِ مَا لَمْ يَجِدْهُ عِنْدَ الْأُولَى، وَقَبْلَ رَحِيلِهِ
إِلَيْهَا بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولَهُ — وَهُوَ وَزِيرُهُ الْأَمِينُ
الْمُتَنَكِّرُ — لِيُخْبِرَهَا بِقُدُومِهِ، وَكَانَتْ أَخْتُهَا الْمَاكِرَةُ
قَدْ وَافَتْهَا بِأَخْبَارِ الْأَبِ الشَّيْخِ، وَكَثْرَةِ حَاشِيَتِهِ
وَجَلْبَتِيَّتِهَا وَضَوْضَائِهَا وَنَفَقَاتِهَا، فَاسْتَقْبَلَتْ رِيحَانُ
رَسُولَ أَبِيهَا اسْتِقْبَالًا جَافًا، فَلَمَّا حَاوَلَ أَنْ يُذَكِّرَهَا

بما لا يبها الشيخ الجليل من حُقوقِ عليّها، ثارت في
وَجْهِهِ غاضبةً، وأمرت بحبسِهِ، عقاباً له على جُرأتِهِ،
فلما وصلَ الملكُ ليرُ مع فرسانِهِ العشرينَ إلى قصرِها
لَمْ يَجِدْ ما كانَ يَرْجُوهُ من تَرْحيبٍ بِقُدُومِهِ، وَعَلِمَ
بِحَبْسِ رَسُولِهِ فاشتدَّ غَضَبُهُ، وراحَ يُقرِّعُ ابنتَهُ العاقَّةَ
ويؤنَّبُها، فانبرتَ له قائلةً:

— خَفَّفْ من غَضَبِكَ أيُّها الأبُّ الشيخُ، وإنَّ
أختي لها كُلُّ العُذْرِ في نَفَادِ صَبْرِها مِنْ صَخَبِ
رجالِكَ وَعَبَثِهِمْ في قَصْرِها، واقترافيهم الشُّرُورَ
والآثامَ، فَقُصُورُ المُلُوكِ جديرةٌ بأنْ تُحَفَظَ مِنْ عَبَثِ
العابثينَ وصَخَبِ اللاهينَ!

ولم يُصدِّقِ الملكُ الشيخُ ما سمعته أذناه من بنتِهِ
الثانية، وكادَ يُغْمِي عليه من قَرِطِ الأَسَى والحُزَنِ،
لولا اعتصامُهُ بالصَّبْرِ، وقد أدركَ مَدَى خَطئِهِ في

تَنَازُلِهِ عَنْ مَمْلَكِيَّتِهِ وَثَرَوَتِهِ لِابْنَتَيْهِ الْجَاهِدَتَيْنِ !

وقالت ريجانُ لأبيها :

— ما حاجةٌ مثلكَ أيها الشيخُ إلى مثلِ هذا
العَدَدِ الكبيرِ مِنَ الحُرَّاسِ والجُنْدِ؟ إني لأستَكثِرُ
عليكَ خمسَةً، وأنتَ لن تَحْتَاجَ إلى فارسٍ واحدٍ، وإن
خَدَمِي يُؤدُّونَ لك كُلَّ ما تُريدُ، فما انتفاعُ مثلكَ
بالحاشية!

وهنا اتَّضَحَ لعيني المَلِكِ الشيخِ ما كانَ خافياً
من عُقُوقِ ابْنَتَيْهِ ونُكْرانِيهما، فاشتدَّ سُخْطُهُ، ودعا
عليهما بأنْ تَلْقيا الجزاءَ العادلَ وسوءَ المَصِيرِ، عِقَاباً
لهما على غَدَرِهما، وعَزَمَ على الرَّحِيلِ عنهما، مُسْتَسْلِماً
إلى أَحْزَانِهِ وَيَأْسِهِ وَمَصِيرِهِ المَجْهُولِ !

انطلقَ الملكُ ليرُ هائِماً على وَجْهِهِ في قَلْبِ
الغاية، وَلَمْ يَصْحَبْهُ إِلاَّ زَيْرُهُ الأَمِينُ المتَنَكِّرُ في
صُورَةِ خَادِمٍ، وواحدٍ آخَرَ من خَدَمِ المَلِكِ، وكانتِ
الليلةُ عاصِفةً شديدةَ البَرْدِ، كثيرةَ الأمطارِ، قاصِفةً
الرُّعُودِ، وقضى الرجالُ الثلاثةُ ليلةً مُروِّعةً، وهم
تائهونَ في ظلامِ الليلِ ودُروبِ الغاية، حتى وَصَلُوا
إلى كُوخٍ صغيرٍ يَقْطُنُهُ (تُومُ المسكينُ) فَدَخَلُوهُ،
وبعدَ قليلٍ وَصَلَ الأميرُ (جُلُستِر) الذي ظَلَّ مُخْلِصاً
لِلْمَلِكِ ليرَ، وقد جاءَ يبحثُ عنه لِيَأْخُذَهُ إلى قَصْرِهِ
القريبِ، وَيُنْقِذَهُ من أَعدائِهِ المُتَرَبِّصِينَ بِهِ، وكانَ
لِلأَمِيرِ جُلُستِر وَلَدَانِ: أَحَدُهُما (اُدْجَارُ) وهو ابْنُهُ

حقاً، وكان مثالَ الوفاءِ، وثانيها (ادمُونْد) وهو
مُتَبَنِّاهُ، وكان مثالَ العُقوقِ، وقد رَبَّاهُ معاً فلما
كَبُرَا لم يَكُنْ لِلثَّانِي هَمٌّ غَيْرُ الوِشَايَةِ بِأَخِيهِ، لِإِغَارِ
صَدْرِ أَبِيهِ عَلَيْهِ، وَلِيَسْتَأْثِرَ هُوَ وَحْدَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ! وَقَدْ
أَوْهَمَ ادمُونْدُ الأَمِيرَ الأبَّ أَنَّ ابْنَهُ ادْجَارَ طَامِعٌ فِي
قَتْلِهِ وَثَرْوَتِهِ، فَطَرَدَ الأَمِيرُ ابْنَهُ وَتَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ، وَلَمْ
يَجِدِ الابْنَ البَارَّ المَظْلُومَ بُدْأً مِنَ الهَرَبِ مِنْ وَجْهِ
أَبِيهِ، فَتَنَكَّرَ فِي زِيٍّ (تُومِ المِسْكِينِ) وَعَاشَ فِي
ذَلِكَ الكَوِخِ الحَقِيرِ فِي الغَايَةِ، وَخَلَا الجَوْ لَإِدمُونْدَ
وَمَكْرِهِ وَخُبَيْثِهِ وَطُمُوحِهِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ
مُسْتَشَارَ المَمْلَكَةِ كُلِّهَا، وَمَوْضِعَ ثِقَةِ الأَمِيرَتَيْنِ
الأُخْتَيْنِ، ابْنَتِي المَلِكِ لِيَرَّ، وَقَدْ أَشْهَمَ فِي تَأْلِيْبِ
الأُخْتَيْنِ عَلَى أَبِيهِمَا، لِلْخُلَاصِ مِنْهُ، وَلَمْ يَجِدِ الخَبِيثُ
مَا يَرْدَعُهُ عَنِ الوِشَايَةِ بِالرَّجُلِ الَّذِي تَبَنَّاهُ، فَكَانَ يُبْلَغُ

الأختين أخبار الأمير جُلُستَ وَوَفائِهِ لَأبيهما،
وَيُحذِرُهما منه، خَشْيَةً مِنْ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى أَبِيهما
وَيُعِينَهُ عَلَى اسْتِرْدَادِ عَرْشِهِ وَأَمْلَاكِه مِنْهَا! وَقَدْ
عَجَّلَتِ الْأَخْتَانِ بِالْقَبْضِ عَلَى الْأَمِيرِ الْوَفِيِّ لِأَبِيها،
بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ لِقَاءِ الْمَلِكِ لِيرَ وَتَحْذِيرِهِ مِنَ الْأَخْطَارِ
الْمُحْدِقَةِ بِهِ، وَأُلْقِيَ بِالْأَمِيرِ فِي السَّجْنِ، وَعُذِّبَ عَذَاباً
أَفْقَدَهُ نُورَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ رَمَوْا بِهِ خَارِجَ السَّجْنِ، وَقَدْ
أَصْبَحَ أَعْمَى يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ بِيَدَيْهِ! وَلَقِيَهُ (تُومُ
الْمَسْكِينُ) عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْبَائِسَةِ، وَهُوَ عَلَى الْحَقِيقَةِ
ابْنُ الْوَفِيِّ إِذْ جَارُ — كَمَا قَدَّمْنَا — فَفَاضَ قَلْبُهُ لَوْعَةً
وَحُزْناً عَلَى أَبِيهِ، وَظَلَّ يُلَازِمُهُ وَيَرْعَاهُ، وَإِنْ لَمْ
يَكْشِفْ لَهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ. وَقَدْ صَادَفَا فِي الْحُقُولِ لِيرَ،
وَقَدْ أَصْبَحَ فِي حَالَةِ مُوسِفَةٍ مِنَ الضَّيَاعِ وَالْهَذْيَانِ
وَسُوءِ الْمَالِ!

كانت أخبارُ مأساةِ الملكِ ليرَ قد وصلتُ إلى
مَساميعِ ابنتِهِ الوفيَّةِ الصُّغرى كُردليَا، فأخبرتُ
بذلك زوجها الحبيبَ ملكَ فرنسَةَ، فل يتردَّدُ في
إعدادِ جيشٍ كبيرٍ لتأديبِ الأختينِ الغادرتينِ
والتنكيلِ بهما، وأسرَّعتُ كُردليَا مع الجيشِ لِنَجْدَةِ
أبيها وإنقاذه، وقد استطاعتِ الفتاةُ البارةُ الحنُونُ أن
تردَّ إلى أبيها الذاهِلِ وغيَّه، فعرفها واعتذر لها نادِماً
عن ظُلْمِها لها، وعرفَ صِدْقَ حُبِّها العظيمِ له، والتقى
الجيشانِ: جيشُ الأختينِ الغادرتينِ وجيشُ كُردليَا
في معركةٍ طاحنةٍ، كان الفوزُ فيها لِلْخُبَّاءِ الثلاثةِ:
جُنَزيلَ وريجانَ ومستشارهما إِذْمُونَدَ الذي قادَ الجيشَ
وأحرزَ النصرَ، وأسَرَ كُردليَا وأباها الملكَ ليرَ،
وأودَعَهُما ا لسَّجَنَ.

وكانَ زوجُ جُنَزيلَ، الأميرُ (ألباني) رَجُلًا

طَيَّبَ الْقَلْبَ، فَأَمَرَ عَلَى إِطْلَاقِ سَرَّاجِ الْأَسِيرَيْنِ،
وَأَصَرَ إِذْمُونَدَ عَلَى بَقَائِهَا فِي السَّجْنِ، وَغَضِبَ الْأَمِيرُ
(أَلْبَانِي) وَدَعَا إِذْمُونَدَ لِلْمُبَارَزَةِ، وَبَيْنَمَا الْجَمْعُ فِي هَذَا
الْمَوْقِفِ الْغَاضِبِ امْتَشَقَ إِذْجَارُ — ابْنُ الْأَمِيرِ
جُلُسْتَر — سَيْفَهُ وَدَعَا إِذْمُونَدَ إِلَى مُبَارَزَتِهِ قَائِلًا:

— هَلُمَّ أَيُّهَا الْقَائِدُ، لِيَكْتُبَ آخِرَ صَفْحَةٍ فِي
تَارِيخِ حَيَاتِكَ الْمَمْلُوءَةِ بِالشُّرُورِ وَالذَّنَايَا
وَالْأَرْجَاسِ! وَاهْتَاجَ إِذْمُونَدُ لِلْإِهَانَاتِ الَّتِي صَبَّهَا
عَلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَى الْمُبَارَزَةِ، فَجَرَّدَ سَيْفَهُ،
وَدَارَتْ رَحَى قِتَالٍ مُسْتَمِيتٍ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَعَاجَلَ
إِذْجَارُ خَصَمَهُ بِطَعْنَةٍ قَاتِلَةٍ جَعَلَتْهُ يَهْوِي إِلَى الْأَرْضِ
مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ، وَأَغْمِيَ عَلَى رِيحَانٍ فَرْعًا، وَكَانَتْ
أَخْتُهَا جُنْرِيْلُ دَسَّتْ لَهَا السُّمَّ قَبِيلَ ذَلِكَ،
لِتَسْتَأْتِرَ بِالْمُلْكِ وَخَدَهَا، وَهَكَذَا سَقَطَتْ رِيحَانُ إِلَى

الأرض بلا حراك، وعندما رأت جُزَيْلُ انهيارَ آماها
بِمَضْرَعٍ إِذْمُونَدَ الذي كان مَعْقِدَ أَمِلِها لِلتَفَرُّدِ في
الحُكْمِ، عاجَلَتْ نَفْسُها بِطَعْنَةٍ قَاتِلَةٍ، وهكذا تَوَالَتْ
مَصَارِعُ الخُبثاءِ الثلاثةِ، مُودَّعِينَ بِاللَّعْنَاتِ، لِمَا
جَنَّتْ أَيْدِيهم من الشُّرُورِ والآثامِ.

وَأَسْرَعَ الأميرُ الْمُنتَصِرُ إِدْجَارُ لِنَقَازِ الأَسِيرَيْنِ:
كُزْدَلِيَا وَأَبِيها المَلِكِ لَيْرَ، وَلَكِنَّ القَضَاءَ كَانَ أَسْرَعَ
منه إلى تلكَ الفتاةِ البَاهِرَةِ التي لَقِيَتْ حَقْفَها
مَضْلُوبَةً في السَّجْنِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْها أَيْدِي
المُنْقِذِينَ! وَاسْتَوَلَى الدُّعْرُ وَالخَبَالُ عَلَى المَلِكِ
لَيْرَ، فَحَمَلَ جُحَّةَ ابْنَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَبْكِي بُكَاءَ
تَنْفِيطٍ لِلوَعْتِهِ أَقْسَى القُلُوبِ!

وهكذا خُتِمَتْ مَأْسَاةُ المَلِكِ لَيْرَ بِالدُّمُوعِ وَالْهَذْيَانِ
وَالْجُنُونِ، حَتَّى لَفَظَ الشَّيْخُ المِسْكِينُ أَنْفَاسَهُ

الأخيرة، وقد طَحَنَتِ الأحزان قلبه وأسلمته إلى الموت.

المحتوى

٣	مقدمة
٥	الباب الأول
		نشأة شيكسبير وتكوينه الثقافي
٢٣	الباب الثاني
		كفاح شيكسبير في الطريق إلى القمة
٤١	الباب الثالث
		شيكسبير في أوج مجده الأدبي والفني
٥٩	الباب الرابع
		شيكسبير في نهاية المطاف
٦٩	الباب الخامس
		صفحات من روائع شيكسبير الخالدة
		أ - تاجر البندقية
		ب - الملك لير

سلسلة في حروف الفاء (فوق) سلسلة في حروف
الألف (من) (الشرق والغرب)



١. الاسكندر الأكبر
٢. هنيئيل
٣. أبو العلاء المعري
٤. ابن بطوطة
٥. ابن خلدون
٦. كريستوف كولومبوس
٧. وليم شكسبير
٨. نابليون بونابرت
٩. ليون تولستوي
١٠. المهاتما غاندي

سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش
ص.ب: (٦٩١٨ - ١١)